سجن العقرب

هشام شعبان

الكتاب : سجن العقرب (رواية)

المؤلف : هشام شعبان

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ٩١٨٧ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-255-7

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور . الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٣٨٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



سجن العقرب

رواية

هشام شعبان

إلى المناضلين من أجل الحرية والكرامة الإنسانية

إلى المكافحين من أجل رفع الظلم والظلام

(١)

يسير منكبّا على وجهه، عندما لمح ببصره بالقرب من منطقة سكنه، كمينًا أمنيَا مشددًا، استوقف عددًا من المارة ومارس معهم ضباطه وأمناؤه أساليبهم المعتادة في الشدِّ والجذب والضرب؛ والسباب أيضًا... لم ينتبه لقميصه الذي ارتداه وقد دونت عليه بلون أحمر كالدم عبارة "وطنٌ بلا تعذيب"... قميصٌ اعتبره المفضل لديه لأنه يعكس حُلمَ شابٍّ مثله في رؤية وطنه أفضل من بقية الأوطان والبلاد.

كان "محمد مظلوم" شابًّا في الثامنة عشر من عمره، طالبَا في السنة الأولى بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، يُعَالَج نفسيَا عند أحد الأطباء القريبين من منزله منذ أن تعرض لانهيار عصبي بعد الموقعة الشهيرة لفض ميداني "رابعة العدوية" و"النهضة". لم يكن ضمن المعتصمين أو حتى المنتمين لجماعة الإخوان التي سقط رئيسها، لكنه فقد ثلاثةً من أصدقائه يومها، حملهم على يديه بعد أيام لتشييع جثامينهم.

والد محمد ميسور الحال، ليس فقيرَا أو ذا مستوى معيشي متدني، كونه موظفًا حكوميَا، لكن سنواته الطوال في حمل عُهدة ثقيلة على عاتقه إرضاءَ لوطنه وضميره، ويقينه

بتقلبات الزمن وأوجاعه؛ دفعاه كي يعيش حياته حريصًا، بل مقترًا على أسرته... كان يظن أنه يؤمِّن لهم مستقبلاً لا صوت فيه يعلو فوق صوت المال... أيام قليلة ويسلِّم الرجل عُهدته ومفاتيح خزنته التي لم تعرف الانتعاش المالي يومًا وكأنها قنطرة يتسرسب منها الماء قطرات حتى يموت من ينتظرها عطشًا... سنوات طوال ردَّ فيها مضطرًا العاملين بمصلحته الحكومية خائبي الأمل لأن القبض الشهري تأخر كالعادة، وهو أمر يفوق إرادته... كثيرًا ما ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يجلس مع زوجته وابنه الوحيد يتندر فيما بعد المعاش؛ أي جلباب سيرتدي، وأي مقهى سيقصده للعب الطاولة.

لم ينتبه محمد إلا على صوتٍ أجشٍّ قادم إليه من ضابط مفتول العضلات، وصفعة على وجهه من أمين شرطة أبكم له شارب كثيف وعينان جاحظتان يرهب بهما الأعداء؛ أو هكذا يظن...

جذبٌ من قميصه، وألفاظٌ بذيئةٌ اعتاد سماعها كلما جالس أصدقاء له عانوا مرارة الاحتجاز داخل قسم شرطة... أسئلة لا تتوقف من ضابط الكمين حول المكتوب على صدر القميص واتهامات له بأنه إرهابي أو إخواني يريد الخراب لبلده ولا يقدِّر تضحيات من يعملون لحفظ الأمن فيها...

نبرات حادة وأخرى غليظة ودفع بالأيدي والأرجل وسط

توسلات ودموع منهمرة من محمد الذي جثى على ركبتيه وقد احتضن جسده النحيف...

- خذوه

كلمة أطلقها الضابط وتبعها بإشارة برأسه لأحد أفراد الكمين أن احتجزوه داخل "البوكس"... محمد يرتعد خوفًا وعقله يفكِّر فيما قد يحدث بعد ساعاتٍ ؛ بل لحظات... يشعر بنسمات الموت في جسده المقشعر ويشم رائحته في الأركان...

فجأة يتوقف عن تهتهته وتوسلاته أن يفرجوا عنه ، يتحول من شاب بسيط المشاعر إلى رجل ثابت وصلب، يدفع الأمين الذي قبض على ذراعه بقبضة حديدية يصيبه في أنفه فتسيل الدماء، ويجري بعيدًا وطلقات الرصاص تلاحقه كأنه في سباق للنجاة... الضابط يعود إلى سيارته ويأمر قوة أمنية ممن معه بملاحقته...

دقائق كان فيها قد غاب عن الأنظار...

- متقلقش يا باشا، أنا عارف الولد ده وعارف بيته

هكذا تحدث الأمين وهو يلتقط أنفاسه... وبسرعة أشار إليه سيده بملاحقته عند منزله وضبط وإحضار والديه إن لم يعد هو ويسلِّم نفسه... أسلوب قديم وعتيق يمارسه بعض رجال البوليس للإيقاع بمن يريدونهم أو للنيل منهم عبر ذويهم.

الضابط يجلس على مقدمة سيارته وهو يدخن سيجارة... ينفخ دخانها بحنق ويضرب كل حين بكفه ضربة غيظ وفشل في القبض على هذا الولد التافه!... وجهه يبعث للمحيط برسائل الانتقام ، انتقام غير مبرر من شاب يريد العدالة والآدمية في وطنه.

بعد سويعات كان محمد قد وصل إلى حافة شارعهم... يتلصص الخطى ليطمأن أنه بأمان... يلتقط أنفاسه، ولا يؤلمه إلا طلق ناري أصاب يده اليمنى ، النزيف يرسم خط سيره من ورائه ويرسم على الأرض شهادة لن تُمحى... والدته ليست في شرفة منزلهم كالعادة ، ولا والده يشرب قهوته ويقرأ جورناله...

- لعلهما بخير...

حدَّث نفسه وهو يسرع الخطوة للاطمئنان عليهم أو لطمأنتهم عليه.

يطرق الباب دون إجابة ، يحاول بصعوبة الإمساك بمفتاح شقته بيده اليسرى التي لم يعتد استخدامها كالكثيرين... ينفتح الباب أخيراً، فينظر في الأفق أمامه فلا يجد والديه...

بألم مكتوم نادى:

- بابا... ماما...

ردّ دها مرات حتى لمحهما مقيدين من أيديهما وقد كمّم اللاصق صوتهما ، هذا الصوت الذي لم يرتفع يومًا وظلَّ حبيس القلوب الضعيفة العاجزة عن مواجهة الطوفان... فمظلوم ليس نوح؛ ولم يكن يومًا، ولا هو مختار من قبل إله سيحميه ويدافع عنه، إن هو إلا فقير يرفع يديه بالدعاء كل يوم لزوال الظلم ولا يأتيه الجواب إلا بالعكس، ورغم هذا يعيد الكرة يومياَ وفي الموعد ذاته تقريباَ ، مثله كمثل ذلك الذي فقد ذاكرته القصيرة فأضحى ماضيه القريب ومستقبله مجرد مشهد متكرر لا يتبدل يومًا.

أدرك محمد أنه المطلوب ، وأن خلاص والديه في تسليمهم نفسه... سقط على الأرض مغشياَ عليه من كثرة الدماء التي سالت من يده ... حينها أطبق عليه نفرٌ من الحُرّاس يجرونه على السلالم حتى سيارة الشرطة التي سدَّت شارعهم...

أمه تصرخ وتولول وقد أزالت عنها كاتم صوتها ، ووالده يتشبث بقدم ابنه في محاولة لتخليصه منهم... الخلق من الجيران يقفون كالمتفرجين على فيلم تراجيدي نهايته مأساوية ولا بطل فيه... الكل متعاطف لكنه عاجز ، موجوع لكنه جبان... ومحمد انزوت به السيارة حتى غابت عن الأنظار والأبصار...
ودَّعته أمه بتلك النظرة المخيفة التي أرسلتها عيناه.

(٢)

على الهواء يتحدث اللواء عبد الحميد مستشهدا بآياتِ من القرآن... ينفي عن نفسه وأفراد شرطته أي انتهاك بحق المواطنين أو المحتجزين... يبرِّر ويبرِّر:

- إن هي إلا أحداث فردية لا ناقة لهم فيها ولا جمل... لا بد من تطبيق القانون...

يردِّد كلماته وقد امتلأت القلوب بالحزن والسخط في آنٍ معًا.

تحاصره أسئلة المتابعين ممن بدأوا يستفيقون من غيبوبة دامت عقودًا، فقدوا فيها النطق وصاروا كالأنعام... سنوات طوال شغلتهم لقمة العيش وضربت عليهم الذلة والمسكنة في سبيلها... سجنٌ كبيرٌ لا مفر منه إلا إلى سجن ضيق معتم يأكل الدود فيه أجسادهم العفنة، ويضرب أعناقهم داخله ثعبان أقرع يكمل حلقة العذاب الأزلي الذي خلقوا لأجله كي يُشعِروا مليكهم باللذة وقت الملل.

وهناك في قسم شرطة المطرية، تتكدس المدرعات وسيارات الأمن المركزي لمنع الأهالي والمحامين الذين تجمعوا وهم يهتفون على قلب رجل واحد ضد الظلم، فزميلهم قد مات إثر التعذيب داخل الحجز، يريدون جثته ويريدون القصاص،

يريدون الانتقام... رجال قانون ألقوا بما درسوه تحت أقدامهم بعدما أيقنوا أن هناك قانونًا آخر لم يدرسوه أو يعرفوه في جامعاتهم وكتبهم... أدركوا أن الدولة غابة بدائية قانونها البقاء للأقوى ، وأن كل مظاهر التحضر تلك ليست أكثر من رائحة نفاذة عطرة تخفي جرب صاحبها وعفنه... تيقنوا أن قطب العدالة الآخر هو سالبها تحت وطأة التعذيب والترهيب والإتاوة في الطرقات على كل من يسوقه قضاه للمرور بجانب أحدهم فيرمش له كامرأة عاهر ويمسح فوق شاربه المخطوط تحت أنفه من الجهتين كي ينضح جيبه بما فيه درءًا لمصيبة ليست على البال.

في الأثناء كانت سيارة الشرطة التي ألقي بها محمد ممدَّدًا وهو ينزف ، قد عادت إلى القسم ودخلت من باب خلفي بعدما تلقت إخبارية بتجمهر الأهالي عند البوابات الأمامية...

داخل قسم المطرية تدور حركة متتابعة واضطراب يصيب الجميع... قيادات تجمعت لمحاولة تهدئة الأزمة الحاصلة وإعادة الأهالي إلى بيوتهم بعد التأكيد على إجراء التحقيق وتولي النيابة القضية، ومحتجزون يمارسون التمرد في حجزهم ويرفعون أصواتهم بالحرية، حضرة الصول لملم دفاتره وشخط فيمن جاءوا لتحرير محاضر يومية معتادة، دافنًا أوراقه في الخزينة لحين استتباب الأمن ورحيل الأهالي الساخطين...

المأمور يأمر صغار ضباطه وأمنائه بتجميع المحتجزين ونقلهم إلى سجن العقرب فوراً، خشية اقتحام القسم وسيطرة الأهالي عليه... أجرى مكالمة بمأمور السجن وأبلغه بتطور الأوضاع لديه ، واتفق الاثنان على نقلهم مؤقتًا إلى "العقرب" شديد الحراسة.

- نزِّلوه من البوكس وحطوه في عربية الترحيلات؟

هكذا أمر ضابط الكمين - بعدما عاد إلى القسم - بنبرة فيها كِبر مشوب بارتباك وتوتر.

نقلوا محمد وباقي المحتجزين بعدما أغلقوا عليهم بالأقفال الحديدية... في الطريق تعالت أصوات المحتجزين وتداخلت، منهم من ارتعب فور علمه بتوجههم إلى سجن العقرب ومنهم "زلومة" الذي أشعل سيجارة كان قد خبأها في كُمِّ قميصه وارتكن على ظهره وهو يردد بنبرة ساخرة:

- وإيه ممكن يحصل أكتر من اللي حصل ؟

شقَّ قميصه ليكشف عن سحجات في ظهره ، وضلع مقوس كُسر قبل أيام والتأم بشكل مشوه ، حتى أضحى هذا الضلع نقطة ضعفه وإذلاله من الأمناء والضباط كلما التقوه في الحجز أو حين العرض على النيابة...

محمد مُلقَى كما هو دون حركة... اقترب منه أحدهم ليستكشف أمره... حي... لكن نبضه سريع كالقطار ودمه تجلط عند يده المصابة... دفن زلومة "عُقب" السيجارة المشتعل في رقبة محمد فأطلق صيحة مزلزلة ، استفاق بصعوبة لا يرى شيئًا من ظلام سيارة الترحيلات التي تشق عتمة الليل...

- أنا فين ؟... بابا... ماما... الضابط ابن الكلب... كلهم ولاد كلب.

ردَّد كلماته وهو يبكي... ليرد زلومة بهدوئه الغريب:

- إنت في عربية الترحيلات ورايحين على سجن العقرب...

- أنا مش فاكر غير إنه أغمى عليّ... وضابط الكمين... ضربوني بالنار...

لم يكمل جملته حتى قاطعه زلومة:

- بص يا بني ، إحنا مترحلين على السجن دلوقتي ، وأول ما ركبنا العربية لقيناك فيها...

صمت محمد وكذلك البقية... يفكِّر في مصير مجهول ومعتم ينتظره وكذا الآخرين... يتساءل كيف يمكن ترحيله إلى سجن دون تحقيق أو عرض على النيابة؟ ثم ما يلبث أن يلوم نفسه

التي تفكر هكذا في مجتمع لا شيء فيه يسير على النحو الصحيح... يصمت ثم يعود لسريرته فيلوم على والده الذي زرع بداخله مبادئ لا وجود لها في العالم الحقيقي، يلوم عليه قبل أن يتراجع ويشفق عليه وعلى والدته وحالهما الآن.

عاد زلومة لطرح الأسئلة على محمد بعدما جلس بجواره:

- وإنت إيه اللي يجيبك هنا يا باشمهندز ؟... ده إنت حتى واضح إنك ابن ناس وأولاد الناس ده مش مكانهم أبدًا؟

نظر إليه وعلامات الألم على وجهه من أثر الرصاصة المغروسة في يده:

- عمرنا ما كنا أولاد ناس... أنا وإنت وكل اللي في العربية دي وغيرهم ملايين غرباء ملهمش مكان ولا وطن، ديتنا رصاصة بملاليم، أو إهانة واستهانة طول ما إحنا عايشين.

- مممم عندك حق والله يا باشمهندز... بس بردو مقولتلناش إيه اللي رماك هنا ؟... إنت إخوان صح ؟... أيوة دقنك طويلة أهي يبقى منهم... حد الله بينا وبينكم آه إنتو اللى خربتوا البلد.

ابتسامة أسى أطلقها من شفتيه اليابستين:

- لأ مش إخوان... أنا شاب عادي جدًا، كل الحكاية إنه مش عاجبني اللي بيحصل : تعذيب وقتل وانتهاك لحقوقي وحقوقك... أنا مقبوض عليّ بسبب القميص دا...

وقد فرد قميصه ليتبينوا ما عليه وهو يردد:
- مكتوب هنا "وطن بلا تعذيب"... تلك تهمتي...

عاد الهمس والحديث عن المصير الذي ينتظرهم جميعًا داخل سجن العقرب، والمفارقة أن أحدًا منهم لم تطأ قدماه أرض ذلك السجن ولا يعرفون عنه إلا أنه كالمقبرة مثلما سمعوا أو قرأ من يعرف القراءة منهم...

كان المحتجزون مع محمد داخل سيارة الترحيلات من المسجونين جنائيًا، ولم يكن منهم محتجز سياسي إلا هو فقط...

توجه إليه "زلومة" وسأله:

- يا ترى حقيقي السجن دا زي ما بيقولوا عليه يا باشمهندز؟ باين عليك قاري وفاهم...

نظر إليه محمد وأومأ برأسه بالإيجاب... ثم عاد لصمته...

ضرب "زلومة" والبقية كفًّا على كف وتعالت أصوات بعضهم في خوف وقلق، وطلبوا منه أن يحدِّثهم عن ذلك السجن... وبالفعل تجمع نفرٌ منهم فحملوه من "رقدته" وأسندوا ظهره إلى جانب السيارة وبدأ يحكي لهم في ألم ما قرأه عن هذا السجن وما يحدث بداخله:

- سجن العقرب، هو السجن الأشهر في البلد والأشد حراسة

كمان، بيقع على بعد كيلومترين من بوابة منطقة السجون الرسمية اللي إحنا هنعدي عليها كمان شوية... ليه أسوار مختلفة عن أسوار السجون العادية، أسوار ضخمة وعالية جدًا معمولة من الأسلاك والخرسانة... وجوه السجن نفسه بقى فيه ٤ مباني احتجاز رئيسية، بالإضافة لمبنى إداري من دورين وجنبه مستوصف طبي صغير ومبنيين فيهم استراحة للظباط ومكتبة ومغسلة ومطبخ مركزي.

- مممم كمل يا باشمهندز دي باينها أيام أسود من اللي شوفناها في القسم...

محمد يكمل ما قرأه عبر الصحف والمواقع الإخبارية نتيجة إطلاعه اليومي بفضل دراسته العلوم السياسية:

- على يمين بوابة الدخول فيه عنبرين متحاوطين بسور له بابين من شبك حديدي وصاج بيمنع رؤية اللي جوه عن نص السجن قدام العنابر، وفيه ملعب عند بوابة الدخول، أما على شمال البوابة ففيه عنبرين تانيين متحاوطين بردو بسور جواني مكون من شبك حديدي وصاج متعرفش تشوف حد منه... في العقرب هنلاقي دور أرضي ودور تحت الأرض "بيدروم"، وفي كل عنبر على ما أذكر ٢٠ زنزانة احتجاز أبوابها من الحديد الصلب و٣ زنزانات أبوابها معمولة من الأسياخ الحديد بشكل طولي بيسموها "زنزانة

مصبع"، وزنزانة تانية بابها حديد صلب بتستخدمها إدارة السجن مخزن لتخزين أدوات النظافة وغيره ، وأوضة استحمام فيها من ٤ إلى ٦ أماكن استحمام.

قاطعه زلومة:

- والزنازين دي صغيرة وضيقة أوي؟ ولا زي الزنازين العادية في السجون اللي دخلناها قبل كده؟

فرد محمد:

- أنا مدخلتش سجن قبل كده ولا حجز قسم حتى، بس اللي أعرفه إن الزنزانة في العقرب مساحتها حوالي ٣ متر في ٣ أو ٣ ونص تقريباً ، وفيها حمام صغير وحوض صغير مكشوفين على الزنزانة من غير ستارة ولا حاجة، يعني اللي بيتبول أو يعمل حمام هيبقى مكشوف على باقي المحتجزين اللي معاه، وفيه كمان مصطبة من الأسمنت المسجونين بيناموا عليها.

- إنت عارف يا باشمهندز... كان فيه واحد في حتتنا قعد كام سنة في العقرب ده وطلع ترللي خالص اللهم احفظنا!

يسترجع محمد ما قاله له أحد أصدقائه ممن تمّ اعتقالهم وخرج قبل أشهر، حول الوضع في الزنازين فيقول:

- صديق لي كان معتقل حكى لي إن الزنزانة من دول فيها باب حديد فيه فتحة صغيرة بيسموها "نضّارة" عشان يدخلوا

الأكل للمعتقل منها ، وفيه كمان فتحة تهوية متغطية بقضبان وبتبص على ممر خلفي بيمنع المعتقلين إنهم يشوفوا السما.

وفجأة سأل "حجاب" وهو أحد المرحلين عن مواعيد الزيارة ونظامها، فصفعه "زلومة" وهو يعلو بصوته:

- هو إنت فيه حد بيسأل عن أهلك يلعن أبو شكلك...

فتحدث محمد:

- مش إشكال عمومًا عشان أي حد لو ليه أهل هيزوروه فالزيارة في سجن العقرب على النظام الأمريكي، يعني فيه إزاز بيفصل بين المسجون واللي جاي يزوره، والسجن كله أصلا فكرته أمريكية عملها بعض الظباط من حوالي ٢٠ سنة لما سافروا بعثة لأمريكا، وللعلم هو سجن مخصص بشكل كبير لسجناء الرأي والسجناء السياسيين مش الحرامية أو المتهمين في جرايم قتل لامؤاخذة ، وللعلم التصريح بالزيارة صعب جدًا وإجراءاته رخمة.

ثم ضحك ضحكة سخرية:

- طبعا الحاجة اللي مسألتوش عليها فيه تعذيب ولا لأ... أحب أقولكم أه فيه تعذيب وبيوصل للقتل كمان ، واغتصاب وحاجات تانية.

قالها وأمسك بيده التي اشتد ألمها عليه دون رحمة أو شفقة.

سكون ساد سيارة الترحيلات، وجلس كلٌّ يفكِّر في مصيره بعد تجاوز عجلات السيارة أبواب السجن...

انتهى محمد من سرد ما يعرفه عن العقرب، وإن كان ذلك مجرد قشور لما سيعيشه ويعانيه بالداخل... فوّض أمره إلى ربه وارتكن يفكر في والده ووالدته وما حل بهما الآن، وما سيحل إن حدث له مكروه.

ومثل محمد، صمت البقية، لكنهم في خلجاتهم يفكرون فيما ينتظرهم، ومنهم من يتساءل عن سبب الزج به إلى هذا السجن تحديدًا، ويلعن حظه العاثر الذي أوقع به في البداية بقبضة البوليس، ويوقع به الآن خلف أسوار مقبرة الأحياء تلك.

(٣)

وسط زحام الأهالي المتجمهرين أمام قسم المطرية ، وقف والد محمد ووالدته، يحاولان دون جدوى الدخول إلى القسم كي يسألوا على ابنهما الذي تم اختطافه أمام أعينهما ، اختطاف ميري رسمي لن يُحاسب عليه من ارتكبوه.

سأل الأستاذ مظلوم من يقفون عن سبب تجمعهم هذا ، فعلم بما جرى للمحامي الذي أُلقي القبض عليه قبل أيام وتعرض للتعذيب حتى الموت داخل قسم الشرطة... ارتعدت فرائصه ، فيما أطلقت والدته صرخة مدوية وبكاء ونواح لا يتوقف.

أمام القسم وجد الوالد أمهات ثكلى فقدنَّ أبناءهن، وشباب راح أصدقاؤهم إلى ما وراء الشمس... السيناريو الأغبر لابنه لا يفارق رأسه، وتمتمة آيات قرآنية لا تنقطع عن لسانه لعلَّ الله يأتي بفرجٍ من عنده...

علم الشيخ العجوز من زمن بعيد أنه لا فائدة من نضال في هذا البلد أو مطالبة بحق، وعاش عمره يسير بجانب الحائط لا يحيد عنه إلى منتصف الطريق أبدًا... سعى وراء الحكماء والأطباء واعتمر إلى ربه كي يرزقه بطفل آخر يؤاخي به محمد

لكن محاولاته لم تكن ذات طائل حالها كحال البلد كلها... حمد ربه وشكره وتمنى أن يعيش حتى يرى ابنه خريجًا وموظفًا كبيراَ، وإن كان قد وافق على دخوله كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مضطراَ، لأنه يعلم أنه لن يعين في السلك الدبلوماسي مثلما يحلم، وأنه سينزوي بنهاية المطاف في مدرسة صغيرة يعلِّم الطلاب مادة التاريخ.

عاد والد محمد وأمه أدراجهما إلى المنزل، وفي طريق العودة حاول أن يخفِّف عنها ويقنعها أنه سيأتي غدًا ليخرج محمد من القسم بعدما يشرح للمأمور أن هنالك خلطًا وسوء تفاهم، وبعد أن تنفض تلك التظاهرة أيضًا... الأم لا تسمع شيئًا إلا صوت ابنها يتردد في أذنها، ولا ترى إلا صورته عندما أغشي عليه في باحة منزلهم وحمله الشرطيون إلى قبره الدنيوي... تسقط على الأرض لا تحرِك ساكنا والأب المفطور قلبه على ابنه يصرخ فيها كي تنهض، بلا جدوى... يساعده بعض المارة في نقلها إلى مستشفى المطرية حيث تجرى لها بعض الفحوصات الطبية ويتم احتجازها لحين الاطمئنان عليها وحتى تستفيق من غيبوبتها... بعد ساعات يأتيه أحد الأطباء وقد ارتسمت على وجهه علامات الحزن والحرج:

- يا حاج أنا عارف إنك راجل مؤمن، بس الحاجة جالها شلل نصفي.

الأب بنبرة عالية موجعة:

- إيه اللي إنت بتقوله دا يا دكتور... لا يمكن... حسبي الله ونعم والوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل... رحمتك يا رب.

عاد الطبيب يربت على كتفه ويقول:

- هأكتب لها دلوقتي مجموعة أدوية تمشي عليها ولازم تروح مركز للعلاج الطبيعي... وبالنسبة لقدرتها على الكلام مرة تانية فدي مسألة هتاخد شوية وقت... وتقدر تخرج بكرة من المستشفى... شد حيلك...

طرق مظلوم باب الغرفة حيث ترقد زوجته، بعدما مسح دموعه وتصنع الابتسامة ليطمئنها على حالها... دخل إليها وجلس بجوارها يحاول نطق الكلمات بصعوبة، تحامل على نفسه وأخبرها أن حزنها على محمد أصابها بهذه الجلطة التي قال الأطباء إنها ستشفى منها خلال أيام؛ بشرط الكفّ عن الحزن والبكاء.

بات مظلوم ليلته بجوار سريرها في المستشفى، وعند سطوع الشمس كان قد استأجر سيارة لتقلهما إلى المنزل... أراحها على السرير وشرع في تجهيز الغداء، قبل أن يخبرها بذهابه إلى قسم الشرطة مرة أخرى كي يحاول معرفة أي معلومة جديدة حول مكان ابنه.

هناك عند القسم كان قد انفض تجمع الأهالي والمحامين بعدما تدخلت أطراف عدة لتهدئة الأوضاع، دخل من بوابة القسم قاصدًا أحد الصولات يجلس خلف مكتب صغير في أحد الأركان، سأله عن نجله واسمه محمد مظلوم تم اقتياده من منزلهم أول أمس وحتى اللحظة لا يعرفون أين هو...

فتش الصول في دفاتره مرة واثنتين قبل أن يجيبه أن ابنه لم يدخل القسم ولم يُحرّر له محضر أو يُدرج في السجلات... وقف الرجل موقف العاجز لا يعرف كيف يعود إلى زوجته المشلولة التي تنتظر خبراً يعيدها للحياة مرة أخرى...

أثناء خروجه لمح أحد الأمناء ممن أتوا إلى منزله قبل يومين ونصب كمينًا لابنه وكمّمه هو وزوجته... أطبق على رقبته وتشبث بياقة بدلته الميري وهو يصرخ:

- هو دا اللي خطف ابني... هاتلي ابني دلوقتي.

تجمع أفراد القسم على الرجل ، ضربوه وخلصوا زميلهم الأمين من تحت يديه ، قبل أن يتدخل أحد الضباط ويسأل عما يحدث، فيروي له الرجل قصة القبض على ابنه...

أنكر الأمين أي صلة له بالمسألة، كما أنكر علاقته بالرجل أيضًا وما يحكي عنه...

أُقتيد مظلوم إلى خارج القسم بعدما أخبره بعضهم أن ابنه ربما يكون قد أُحتجز في قسم شرطة آخر...

عند الباب لاحقه أحد أفراد القسم ممن رأى ولده وهم يرّحلونه، وأخبره أن محمد في سجن العقرب منذ ليلة ضبطه، وشدَّد عليه:

- أنا مقولتلكش حاجة... ولا أعرف حاجة... اتوكل يا عم الحاج وربنا معاك... ده اللي أقدر أساعدك بيه...

عاد مظلوم يجرّ قدميه نحو المنزل، وهناك أخبر زوجته بما حدث في القسم، وهاتف قريباَ له محامٍ وأطلعه على القصة برمتها... المحامي بدوره كرّر على مسامعه ما لم يرد قط أن يسمعه: محمد معتقل وليس على ذمة قضية حتى الآن، ولا يمكن زيارته لأن إدارة السجن لن تعترف بوجوده. الأمر قد يستمر فترة طويلة وقد ينتهي خلال أيام، لكن ما سيحدث بالتأكيد هو تلفيق إحدى القضايا له حتى يُعرض على النيابة العامة ومن ثم المحكمة.

قام مظلوم لصلاته بعدما اطمأن أن زوجته قد نامت بعد عناء... همّ بقيام الليل وتلاوة سورتي يس والكهف، ظلَّ على حاله حتى أذان الفجر، فأدَّى فرضه ونام على سجادة صلاته حتى يقضي الله أمراَ كان مفعولا.

(٤)

توقفت سيارة الترحيلات -بعد حين من الدهر- في باحة سجن العقرب... نُزعت الأقفال الحديدية عن الباب ووقف مأمور السجن ومعه نائبه وضباطه في صفين متوازيين على جانبي السيارة... بدأ المحتجزون في النزول واحدًا تلو الآخر، حيث جرى استقبالهم كالعادة بـ"التشريفة": صفعة قوية على الوجه وركلة بالقدم على المؤخرة.

اصطف المرحلون في منتصف باحة السجن وقد جرى تجريدهم من ملابسهم جميعها؛ فيما عدا السروال الداخلي، وتسابق الضباط والصولات في ضربهم بشدة بالهراوات بشكل عشوائي... لمح المأمور يد محمد التي لطخها الدم وكذا قميصه الأبيض المنقوش عليه "وطن بلا تعذيب"، اقترب منه وقد أصبحت قدمه فوق يده المغروس الرصاص داخلها، دهسها وهو ينفخ دخان سيجارته في زهوٍ وكبرٍ منتشياً بتأوهات الشاب النحيف الذي تجرأ على أسياده... هكذا تحدث بصوته الغليظ المرتفع قبل أن يأمر باقتياده إلى المستوصف لإزالة تلك الرصاصة عنه.

زلومة ورفاقه يجرون كالبهائم المفزوعة التي تخشى ضربة

الهراوة، شبه عرايا في الليل، تلاحقهم عصيان العسكر من كل حدب وصوب ، حتى أدخلوهم زنازين متفرقة وعشوائية خاصة بالسجناء الجنائيين.

وفي المستوصف أمر الطبيب :

- لازم نقطع إيده وإلا هيجيله غرغرينا ويموت.

رد نائب المأمور:

- يموت إيه ؟ لا دا مش على ذمة السجن حتى ، ولسه متعملوش قضية... اتصرف يا دكتور اقطعها وخلصنا ، وهنقول إنه جالنا كده...

أتى الدكتور بآلته الحادة ومحمد يصرخ ويصرخ حتى رجّ صوته القابعين في زنازينهم... خمسة عساكر من طوال القامة وأصحاب البنية الضخمة التفوا حوله وقد قيدوه بالكامل، حتى فمه أطبق عليه أحدهم بكفه فلم يُسمع صوتٌ لمحمد وقد غاص في سبات الحمى أيامًا عدة منذ بترت يده وتناثرت دماؤه على قميص الطبيب وكذا سجانّيه الذين نُزعت عنهم صفة الإنسانية كشرط لوجودهم في ذلك المكان القاحل.

في سباته المؤلم، اعتاد الطبيب التردد عليه في الزنزانة التي وضعوه بها كي يطمئن أنه لا يزال على قيد الحياة، يعطيه حبوبًا صغيرة تخفِّف من أثر الحمى وتعمل على تجلط الدم ووقف النزيف.

وفي الأثناء كان مأمور السجن ومأمور القسم قد استوفيا أوراق اتهامه في محضر رسمي ، وأصبح طالب الاقتصاد والسياسة الذي حلم بالتخرج والعمل دبلوماسياً ؛ أصبح إرهابياً ينتمي لجماعة محظورة، ومتهم بقتل أربعة من أفراد أمن في أحد الكمائن ، والعمل على نشر الفوضى والشغب وقلب نظام الحكم... اتهامات خرقاء متشابهة كثيراً مع تلك التي يواجهها آخرون ممن يزاملهم في زنزانته.

استفاق بعد أيام كأنها سنين طويلة، ظلَّ ليالي متواصلة يبكي يده التي قطعت من جسده وكرامته التي أُغتصبت علانية... لم يحدِّث أحدًا قط ، ولم يأكل إلا الفتات ، حتى رفع رأسه ذات يوم فرأى أحد المحتجزين وقد بدا في حالة يرثى لها...

نطق بأولى كلماته عندما سأل -بعدما آمن أن نهايته ستكون في تلك الزنزانة المظلمة- عن عويس ذلك الذي تقطر الدماء من بطنه ولم تلتئم بسبب الرطوبة حتى أصبحت مرتعًا للذباب ، قبل أن يجيب زميل في الزنزانة عن تساؤل الوافد الجديد النحيل ، تنهد عويس وأطلق العنان لنفسه مسترجعًا ما عايشه من ذُلٍّ ومرارة:

- عرّوني تمامًا وأجبروني أن أزحف على الأرض وأسَف التراب وهم بيضحكوا ويسخروا مني بطريقتهم القذرة... طلقوا علي الكلاب تنهش في جسمي وأنا بتلوى ومش عارف أفدي

نفسي... فضلت أزحف شوية وأجرى شوية لحد ما لقيتني قدام بوابة الزنزانة دي وجسمي ملوش ملامح من دمي اللي مغرقني... سابوني حتى مودونيش المستشفى أخيط الجروح لحد ما جسمي اتسمم وبقيت ميت لكن فيّ النفس...

انهمرت الدموع من عيني محمد وعويس، وساد في الزنزانة ظلامٌ أحلك من سوادها الطبيعي...

كان عويس مهندسًا ألقي القبض عليه بتهمة التظاهر بالمخالفة للقانون... وكان أحمد مصورًا صحفيا قُبض عليه في أحد الكمائن بالقاهرة بعدما وجدت قوة الكمين معه كاميرا مسجل عليها صور بعض التظاهرات... وفي ركنٍ آخر انزوى عمر وهو طبيب أبلغ عنه جاره بأنه يسبّ النظام الحاكم وله ميول معارضة له...

وهكذا بقية من حُشروا في تلك الحجرة التي لا يدخلها ضوء أو هواء.

(٥)

في شرفة منزله جلس الأستاذ مظلوم يشرب قهوته ممسكًا بمسبحته وهو يستغفر، عندما رنَّ جرس الباب ففتح، فإذ به الأستاذ عطية المحامي...

- أستاذ عطية أهلاً وسهلاً، اتفضل.

مسح عطية عرق جبهته بمنديل من القماش ودخل من الباب:

- إحم... يا ساتر...

جلس عطية وأمامه الأستاذ مظلوم في الصالون حيث أومأ له بإغلاق غرفة النوم حتى لا تستمع والدة محمد لما سيقوله... نظر مظلوم بريبة وقلق إلى المحامي بعدما شعر بأن الأخبار لن تسر، وأن المصيبة لن تنقشع عن بيتهم...
فعل ما أمر به وعاد متلهفا منه أطراف الحديث وجوهره...

- بص يا حاج مظلوم... بس عايزك تبقى راجل مؤمن كده زي ما عاهدناك طول العمر...

بقلق يقود إلى الموت:

- قول يابني محمد جراله إيه؟

- أنا عرفت محمد فين... هو معتقل في سجن العقرب، وطول الفترة اللي فاتت دي مكنش اتعمله محضر أو اتحقق معاه... ودلوقتي مفترض جلسة محاكمته الأسبوع الجاي.

ابتلع الرجل ريقه بصعوبة والدموع تغمر عينيه ويردد في استنكار:

- ابني أنا في سجن العقرب ليه؟ عمل إيه يا أستاذ عطية؟ ده غلبان وأنا غلبان وعمرنا ما مشينا إلا جنب الحيط... عمرنا ما آذينا الحكومة في حاجة، ولا لينا دعوة بحاجة.

- وطي صوتك يا أستاذ مظلوم عشان الحاجة متسمعش، وأنا جايلك في الكلام... محمد تعدى على كمين ولفقوا له شوية قضايا كده منها انضمامه للجماعة إياها اللي إنت عارفها.

- ابني أنا؟ طيب إزاي؟! رحمتك يا رب... طب وهو عامل إيه يا أستاذ عطية؟ صحته عاملة إيه؟ وبياكل ولا لأ؟.

- أنا عرفت إنه كويس، لكن مكدبش عليك المعاملة في السجن ده سيئة للغاية، أنا بأمل من ربنا خير إنه ياخد حكم مخفف.

مظلوم لا يكف عن البكاء على ولده وعلى حاله:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، غفرانك يا رب... طيب يا بني نعرف نشوفه إمتى وإزاي؟

- أنا لحسن الحظ عرفت أجيبلك تصريح زيارة إنت وأمه من ظابط زميلي، اتفضل أهو، بس خد بالك مواعيد الزيارة من ٦ الصبح بدري، ولازم تكون يومها من بدري... ويللا سلامو عليكو أنا هخطف رجلي لحد المكتب وإن شاء الله هأتابع معاك القضية لحظة بلحظة.

أغلق مظلوم الباب وعاد إلى زوجته التي سمعت كل شيء، ودخلت في نوبة بكاء مكتومة... لم يخفِّف عن الأم المكلومة غير أنها سترى ابنها بعد طول غياب، تمنِّي النفس أن يكون بخير مبتسمًا ومتفائلا كما عهدته... لكن كيف وهو وراء الأسوار الحديدية والخرسانية لا يأكل إلا طعام أشبه بالضريع؟ تكتم أفكارها حينًا، وتبوح بها جهرًا حينًا آخر، لعلَّ مشاركتها الأوجاع مع زوجها تخفِّف لهيب النار المشتعلة في قلبها على ابنها الوحيد.

(٦)

في العقرب تسري الأيام جميعها متشابهة، لا فرق بين ليلٍ ونهار، ولا قيمة للوقت... التريض ممنوع إلا في حالات نادرة عندما يهم رجال المجلس القومي لحقوق الإنسان بزيارة السجن للاطمئنان على أحوال من فيه، والطعام فيه سم يقتل ببطء... لا شمس ولا هواء، وفي الصيف تفوح من الزنازين روائح عفنة.

في صبيحة أحد الأيام استيقظ المحتجزون على دربكة في عنبرهم... المأمور ومعه الطبيب وعدد من الضباط والعساكر ينقلون أحد السجناء جثة هامدة: "عبد الظاهر"، هكذا كان لقبه الذي عرفوه به، قبع في زنزانته ثماني سنوات متواصلة دون أن يرى النور، حتى مات كمدًا وقهراَ... لم يستطع المقاومة أكثر من ذلك، وقرّر أن يضع حدًّا لحياته البائسة المهانة تلك.

في زنزانته الانفرادية عانى "المهندس" عبد الظاهر من السُلِّ والجرب، لكن هذا لم يقتله، بل قتلته الوحدة والتهميش والإذلال، قتله جهده طوال سنين طويلة طالباَ للعلم، ولم يكن يعلم أن نهاية المطاف ستكون في غرفة مظلمة موحشة ها هنا لا يقيم له أحد وزنًا، ولا يضر وجوده أو ينفع.

ساد صمت معتاد زنازين العنبر جميعها ، حتى رفع محمد مظلوم صوته ليسأل عن عماد الذي ملأ اسمه جدران الزنزانة...

ربت أحمد على كتفه قبل أن يتذكر عماد ويقرأ له الفاتحة هو والبقية ممن عايشوا لحظة وفاته:

- عماد الله يرحمه جالنا هنا في أغسطس اللي فات، كان زينا ضرب وإهانة ، وشوية بدأت سياسة التجويع اللي عماد مستحملهاش... بعد فترة عماد قعد يشتكي من ألم شديد في بطنه ، طبعا قلنا للظباط ؛ قالوا لنا : قدِّموا طلب للمأمور... قدمنا الطلب ومحدش رد علينا ، وبدأت حالة عماد تسوء، وبقى نحيف جدًا وضعيف وبيتقيأ دم... لحد ما في عيد الفطر أغمى عليه وقعدنا نصوت وعملنا هرج وبردو إدارة السجن رفضت طلب الدكتور إنه يتنقل لمستشفى "ليمان طرة"، ولما هددنا بالإضراب كلنا في العنبر مش الزنزانة دي بس استجابوا لنا ونقلوه المستشفى...

أمسك عمر بطرف الحديث وأكمل وهو يكفكف دموعه:

- على مدار أسبوعين، قعد عماد، في المستشفى، عرفنا إنهم سابوه مرمي من غير فحوصات ولا أدوية غير محلول مالوش لازمة ، وبعدها رجعوه الزنزانة تاني. مكملش كام يوم وحالته بقت أسوأ من الأول ، فأخدوه لمستشفى

الباطنة، وهناك اكتشفوا إن عنده سرطان في المعدة، ووصى الدكتور اللي كشف عليه إنه لازم يعمل عملية استئصال للورم ، لكن إدارة قسم المعتقلين المرضى في المستشفى اتأخرت كالعادة في إجراء الفحوصات اللازمة ليه قبل العملية الجراحية، لحد ما مات وعمره ٤١ سنة.

وقف محمد عند فتحة التهوية الرديئة ونظر وهو لا يكاد يرى إلا خيالات مبهمة، يفكِّر أيهما سيكون مصيره، هل هذا الذي انتهى إليه عماد؛ ووقتها يكون قد قضى نحبه سريعًا... أم يقاوم مثلما يقاوم عويس؛ رغم يقينه بأن العدوى والمرض أقوى منه.

أنهى خلوته بعدما عرف أن جلسة محاكمته الأسبوع القادم مع نفر لا بأس به من المتهمين في نفس القضايا تقريبًا ... لم يبالي، وكثيرًا ما تاق إلى والديه وتمنى رؤيتهما ولو لمرة أخيرة لعلهما يمنحانه بعطفهما نورًا في ظُلمة محبسه.

(٧)

أمام التليفزيون قبع صامتًا يقلِّب في امتعاض محطاته التي لا تأتي بخبر أو حدث يدعو للتفاؤل أو يدخل البهجة للقلوب، وفجأة انتبه من جلسته ورفع صوت التليفزيون عاليًا عندما شاهد رئيس المجلس القومي لحقوق الإنسان يتحدث عن سجن العقرب والمحبوسين بداخله... لم يكن الأستاذ مظلوم يعرف شيئًا عن حال ابنه داخل السجن، ويوميًا يكرِّر على مسامع زوجته - وهي كذلك عبر إشارات من يدها السليمة - التساؤلات ذاتها حول وضع محمد والطعام المقدَّم له والسرير الذي يرقد عليه؛ إن كان هناك سرير من الأساس... كان العقرب بالنسبة لهم كبرج عاجي لا يمكنهم الولوج إليه أو معرفة ما بداخله لأن رسوم دخوله باهظة جدًا لا تتناسب مع راتب الموظف العجوز.

هرول مظلوم إلى زوجته القابعة على سريرها بغرفة النوم، حملها بين يديه إلى أن أراحها على كنبة الصالون أمام التليفزيون مباشرة...

- ياما إنت كريم يارب. ابشري يا حاجة، راجل كبير أوي بتاع حقوق الإنسان هيتكلم عن سجن العقرب اللي محمد فيه.

جلسا منتبهين عندما بدأ عضو المنظمة الحقوقية الرسمية يسرد تفاصيل تقريرهم الأخير لزيارتهم العقرب والتي كانت منذ أيام قليلة...

- لا تعذيب في سجن العقرب وكل شيء على ما يرام... ده عنوان مبسط يلخص لحضرتك والسادة المشاهدين ولذوي المسجونين تقريرنا الأخير... كافيتريا السجن هي أو عيادات السجن لا تغلق بابها في وجه النزلاء، والأطعمة جيدة، وبنفسنا تذوقنا هذه الأطعمة وزرنا مطبخ السجن، وأعتقد الكل شاف صور جولتنا الأخيرة التي تم تداولها على وسائل الإعلام، في السجن - واخدلي بال حضرتك - موجود مكتبة وقاعة وعظ، وزيارات الأهالي في مواعيدها ومظبوطة جدًا... باختصار كل شيء يسير بدقة وانضباط واحترام لحقوق السجناء.

رفع الوالدان المكلومان أيديهما للسماء شكرًا لربهما بعدما اطمأنوا -أو ظنوا كذلك- أن ابنهما بخير وسليم معافى يعيش حياة آدمية لا ينقصه فيها إلا أنه داخل أربع جدران لا يستطيع مغادرتها...

أثلجت كلمات المسئول الحقوقي صدورهما المتقدة بنار الخوف والقلق، لكنها لم تطفئ نار الفراق التي تشويهم كل ساعة وكل دقيقة...

لم يقطع وصلة الدعاء والشكر التي انهمك فيها مظلوم وزوجته إلا لقاءات تليفزيونية أعقبت حديث رجل حقوق الإنسان ، مع أبناء وأهالي بعض المعتقلين في العقرب... لقاءات وشهادات كفيلة أن تعصف بهما من الدنيا أو تصيبهما بحسرة شديدة لا يفارقانها أبدًا...

هبط مظلوم على كرسيه كبناء ظلَّ أعوامًا آيلاً للسقوط حتى انهار رأسًا على عقب، عاد لجلسته وزوجته بجواره يستمعان لمَا تقوله ابنة الدكتور بهجت ؛ أحد السجناء الحاليين في سجن العقرب ؛ والتي وصفت التقرير الصادر عن المجلس القومي لحقوق الإنسان بأنه متحيز وغير منصف بل وموجه، وأن وفد المجلس القومي الحقوقي تحرك في السجن بناءَ على تعليمات المأمور.

أمّا والدة أحد الطلاب في سن محمد ويدعى عمر فلم تتمالك نفسها وهي تحكي بمرارة ما حدث لابنها وزوجها:

- تعالوا شوفوا المعتقلين عاملين إزاي، منعوا الزيارة والأكل والشرب والأدوية... عمر كان بيقشر البرتقالة ويجمد القشرة عشان ياكلها لما مايكونش فيه أكل...

قالتها السيدة العجوز بينما تستند على عكازها وهي تمشي في أنحاء منزل افتقد الابن خلف أسوار السجن العالية، وافتقد الأب الذي مات بحسرته بعد طول انتظار لرجوع نجله للمنزل مرة أخرى...

انزوت العجوز بعكازها ، ليظهر مطمس العينين بشريطة سوداء عليها ؛ شاب في الثلاثينيات يجلس على كرسيَ متحرِّك خرج من السجن قبل أسابيع قليلة وهو يروي بعضًا مما حدث معهم:

- في السجن عدد منا أجبروه يقعد لا مؤاخذة زي الحيوانات على إيديه ورجليه، وحطوا العصيان لا مؤاخذة يعني في دبر المعتقلين، ده غير التعذيب بالكهربا عمّال على بطّال وفي حتت حساسة بالجسم.

الصدمة على وجه مظلوم وزوجته ازدادت معالمها، ودبّ الرعب في قلوبهما عندما تحدث طبيب ذو مركز عن أن أطباء العقرب يساعدون إدارة السجون على تعذيب المعتقلين؛ بالامتناع عن الكشف الطبي، وعدم صرف أدوية للمرضى ، والتعنت في مساعدة السجناء المصابين بأمراض مزمنة في الخروج لإجراء فحوصات طبية، كما أن عديدًا من الأطباء ليس على مستو عالٍ من الكفاءة، أو عدم قدرته على تغطية عدد المرضى الهائل بالسجن الواحد.

مشادات على الهواء تزداد بين ممثل القومي لحقوق الإنسان الذي أصرّ على الدفاع عن مسؤولي السجن وفقًا لما رآه من خدمة خمس نجوم، وبين أبو هريرة المحامي في الجمعية المصرية لحقوق الإنسان ، والذي اتهم الداخلية بانتهاك

حقوق المساجين ومخالفة قانون تنظيم السجون رقم ٣٩٦ لسنة ٥٦ ، الذي ينص على أن كل محكوم عليه إذا تبين للإدارة الطبية بمصلحة السجون أنه مصاب بمرض يهدِّد حياته يتم الإفراج عنه صحياََ ، بعد اعتماد مدير عام السجون وموافقة النائب العام... وهو ما تمتنع عنه الوزارة.

أبو هريرة رفع صوته ليزلزل الأستوديو مستعرضًا روايات وحالات خروقات وانتهاكات بالجملة لحقوق السجناء السياسيين ، من منع من العلاج والطعام والتريض ، وتكدس مقرات الاحتجاز ، أو معاقبة السجناء بحبسهم انفرادياً لمدد طويلة... سلسلة طويلة من الاتهامات ، قابلها ممثل مجلس حقوق الإنسان بالانسحاب المفاجئ من البرنامج.

كانت روايات الأهالي المحتجزة أبناؤهم وذووهم في السجن وما كشف عنه النقاب من تعنت لأطباء السجن ؛ كفيلة بانقضاء شعاع الأمل الذي أنير قبل دقائق...

لم يتحدث مظلوم ولم ترفع زوجته يدها بأي إشارة ، فيما عدا وجه ممتعض يكسوه صمتٌ موجعٌ كسره خبطٌ على الباب...

••••

"علياء"... فتاة في العشرينيات ، تدرس الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة ؛ شأنها شأن محمد ، تسكن بالقرب من منزل أسرة مظلوم، وجاءت الليلة كي تخبر والديّ الطالب المسجون عن تظاهرة كبرى سينظمها أهالي المسجونين في العقرب...

- مساء الخير يا عمي، أنا علياء زميلة محمد في الكلية.
- مساء النور يا بنتي، اتفضلي.
- أنا آسفة لو الوقت متأخر ، بس جيت أقولكم إن فيه تظاهرة كبيرة عاملها أهالي المسجونين في العقرب، وهيكون ليها تأثير كبير أكيد ، خصوصًا إن وسائل الإعلام هتكون بتغطيها... لازم تيجوا تطالبوا بالإفراج عن محمد... لسه متحددش ميعاد، لكن أنا قولت أجي أقولكم عشان تعملوا حسابكم وتقولوا لأي حد تعرفوه، وأنا أول ما يتحدد الميعاد هكلمك يا عمي وأقولك.

مظلوم بأسى:

- إحنا مش بتوع مظاهرات يا بنتي، ولا الكلام ده، إحنا ناس في حالنا وعايزين ابننا يخرج بالسلامة ، مش نتظاهر فينتقموا منه جوه السجن بسببنا.

علياء باندهاش:

- عمرهم ما هيخرجوه بالطريقة دي يا عمي، ولا إيه طنط؟

أم محمد لا تجيب ، تمسك بصورة ابنها الوحيد تمسح على وجهه وتبكي بكاءَ مكتومًا... وعلياء تواصل حديثها لتحفيزهما للخروج وعدم السكوت عن الظلم الواقع على ابنهما:

- لو عايز محمد يرجع تاني وسطنا لازم تطالب بحقه ياعمي، ولو استنيت القانون يجيبلك حقك تبقى غلطان. أنا هأكون في المظاهرة بأطالب بحق محمد، ومش أنا لوحدي، لا هيكون معايا كتير من زمايلنا وكتير من الأهالي اللي مخافوش ونزلوا عشان خاطر ولادهم... تصبحوا على خير...

- بصي يا بنتي، إحنا رايحين نزور محمد بعد بكرة، وماشيين في القضية مع المحامي... متشكرين ليكي أوي.

غادرت علياء تاركة خلفها أبوين في بحرٍ متلاطمٍ من الأفكار والخوف واليأس، مظلوم يفكّر في التصرف بشجاعة لم يمتلكها في فترات شبابه، وزوجته لا حول لها ولا قوة.

جلسا تتردد على مسامعهما في التليفزيون شهادات الأهالي وأحاديث بعض المشهود لهم بالنزاهة والانتصار للحق بأن ما جاء في تقرير المجلس تمثيلية هزلية لا تمت للواقع بصلة، وأن التقرير محاولة رخيصة لتجميل صورة الحكومة.

بات الاثنان ليلتهما المظلمة لم يغفل لهما جفن، حتى فاجأ مظلوم زوجته بأن تبدل ملابسها لأن لديهما حدث هام لا يحتمل الانتظار أو التأجيل.

(٨)

متعبة تقف هيام على أبواب العقرب بعدما أعدَّت الطعام لزوجها المحبوس سياسيًا ، على كتفها تحمل ابنتها الرضيعة وهي تمسك بعامود من أربعة أواني طهي صغيرة فيها الأكلات التي يحبها... بجوارها مظلوم وزوجته يحدوهما الأمل لرؤية ابنهما الوحيد لأول مرة منذ اعتقاله.

المئات يقفون بالساعات أمام البوابات الحديدية الموصدة منذ الليلة السابقة لموعد الزيارة ، منهم من جاء مسافرًا من أقاصي الصعيد، آخرون اجتازوا المعدية وباتوا بالساعات على الأرصفة بامتداد سور السجن القريب من بوابته المغلقة ، جلسوا على الأرض ، والتحفوا بأغطية حملوها معهم في رحلتهم الشهرية الشاقة، أملاً في الفوز بدقائق قليلة ينظرون فيها لذويهم؛ لربما تكون النظرة الأخيرة في واقع غير مضمونة عواقبه، ولا ثمن فيه للإنسان ولا دية.

خلف الحاجز الزجاجي الطابق على أنفاسه جلس تختلط بداخله مشاعر الشوق والخوف والقلق والألم والحسرة على حاله وحال والديه الذين ظهرا من أحد أطراف الغرفة المقابلة فجأة في ثيابهما الرثة يتلفتان بلهفة ونظراتهما زائغة

كأنهما في بحرٍ عاتٍ تغمرهما أمواجه فتخسف بهما للقاع وتدفعهما للسطح في حركة دورية غير منتظمة يرتجّ لها رأساهما، فيصيران سكارى وما هم بسكارى.

بخطوات هادئة ساكنة سار مظلوم يدفع بيديه كرسيًا متحركًا تجلس عليه زوجته المتلهفة لرؤية ابنها... اقتربا من الحاجز الزجاجي الذي يقبع محمد خلفه، التقف مظلوم يد زوجته بقوة؛ قوة يضغط بها كل منهما على يد الآخر ليخفي وراءها ضعفًا شديدًا وقلة حيلة...

من خلف الزجاج التقط محمد سماعة الهاتف العتيقة وهو يتصنع ابتسامة موجعة أملاً في أن تخفي عن مظلوم وزوجته آثار التعذيب والضرب المبرح على وجهه وجبهته، بعدما دفن يده المبتورة بين ساقيه كأنها عارٌ لحق به، ابتسامة حاول بها التماسك وهو يرى أمه عاجزة لا تستطيع الحركة كما كانت ولسانها متقوقع داخل فمها غير قادر على الحديث معه أو إسماعه صوتها... محاولة يائسة لم تنجح في أن تطمس مرارة الروح غير الملموسة في ثنايا طرفة الأعين وانفراجة الشفاه.

جلست الأم تتهته وترسل بيدها السليمة قبلات حُبٍّ عفوية في نمط سريع تتآكل معه إشارات يديها وتعبيرات وجهها خوفًا من أن تنتهي دقائق الزيارة دون أن تريح قلبها من جبال الخوف والرغبة في الطمأنينة على ابنها...

مظلوم:
- أمك بتقولك ازيك يا محمد، وحشتني يا ابني يا حبيبي... متقلقش عليها، أزمة صحية صغيرة وهتقوم منها أقوى من الأول، إنت بس اخرجلها بالسلامة يا بطل...

محمد لم يعد قادرًا على أن يتحكم في دموعه:
- أنا السبب، أنا السبب، سامحيني يا ماما.

مظلوم:
- بس يا محمد، عيب كده إنت راجل... يللا طمن والدتك عليك: بتاكل كويس؟ بتنام كويس؟ عامل إيه في البرد ده يا ابني؟

محمد متصنعًا الضحكة:
- متخافيش يا أمي اطمني، أنا الحمد لله بأكل وأنام... خدي بالك إنتي بس من صحتك، وواظبي على جلسات العلاج الطبيعي الله يخليكي، عايز أخرج ألاقيكي زي الحصان.

الأب:
- خلاص يا أم محمد متقلبيهاش نكد أومال، الحمد لله أدينا اطمنا عليه وإن شاء الله هيخرج لك قريب... هم أكيد عارفين إنه مالوش دعوة بحاجة، مش كده يا محمد؟...

قالها ونظر لابنه نظرة قصيرة كأنها سنين الدهر، يريد أن

يطمئن قلبه ولو كذبًا، ويريد للأم المقتولة حُزنًا وكمدًا أن تستعيد أنفاسها المحشورة في ثنايا صدرها كبحيرة لا تتجدد مياهها...

أنهى الولد ثواني الصمت الممدودة مباغتًا والده:

- أيوة بقى، إيه الساعة الحلوة دي يا أستاذ مظلوم؟
- هي دي اللي أخدت بالك منها؟... طيب يا سيدي هجيبلك واحدة زيها الزيارة الجاية... وزيارة جاية ليه؟ أنا واثق في ربنا إنك هتخرجلنا قريب جدًا.
- معلش يا والدي، أصل أنا هنا مشوفتش ولا ساعة مع أي حد، واخدينها مننا من أول ما وصلنا هنا.

بصوت مكتوم:

- مممم، مش أزمة، مش دايمًا تقولي نفسك تروح الفندق ده اللي في الواحات اللي مفيهوش تليفون ولا ساعة ولا إنترنت؟ اعتبر نفسك في الفندق ده يا حضرة الدبلوماسي..
- مفيش دبلوماسي كان رد سجون.

بغضب:

- إياك تقول كده تاني، أنا سمعت إنهم عاملين إضراب جوه السجن عندك... قرأت كده في الجرايد.

صمت قليلاً ثم تنهد بصوت أزعج ذبذبات الهاتف وقال:

- دخل لنا الجمعة اللى فاتت مساعد وزير الداخلية العنبر

وقال لنا نصًا "مش هتكملوا معايا شهر! كلكم كبار وكلكم بتاخدوا أدوية، واللي مش عجوز فيكم السجن نخر جتته وبقى زي خيال المآتة... هأمنع عنكم الأدوية وهأنقلكم الوادي الجديد الترحيلة ٨ ساعات رايح جاي، السليم فيكم بقا هيقع، والعيان فيكم هيموت، والأعمار أهي كلها بيد الله يا جماعة..."!!

مظلوم بدأ رويدًا يدرك أن ابنه يواجه عُتاةً لا مجال للعناد في مقاومتهم أو إجبارهم على شيء... أطلق كُحة كالصاعقة وقال:

- طيب يا ابني الناس دي جبابرة وظلمة، والعناد مينفعش معاهم، وزي ما قلت لك إنت اتاخدت في الرجلين، وإن شاء الله هتخرج قريب، الأستاذ عطية المحامي أكِّدلي.

في تلك اللحظات كانت الأم قد اكتفت بنظراتها المليئة بالحُبِّ والوداع في آنٍ واحد، لم تغب عنها ابتسامتها الصافية لولا الدموع التي شقَّت نهرين على خديها تقطعهما كل حين، فما يلبثا أن يعودا لمجراهما الجديد القديم، كأنها لن تراه مجددًا وكأنها مكالمة الوداع ونظرة الوداع لفلذة كبدها الذي ستُحرم من رؤيته خريجًا وعريسًا وأبًا يومًا ما مثلما تتمنى كل أم... صامتة تفكِّر وهي ترفع يدها على الزجاج أملاً في ملامسة جروحه التي تصدرت المشهد من تحت فتحات قميصه

الممزق، تشعر به بعيدًا عنها رغم السنتيمترات القليلة التي تفصلهما، بعيدًا كأنه في عالم آخر بمجرة موازية لعالمها الظالم الذي لم يشفع لها فيه تعبدها وإيثارها السكينة وتجنب المشكلات مع الكبير والصغير طوال حياتها.

انتهت دقائق الزيارة بصوت حارس السجن الضخم الذي وقف "يزغر" للأهالي أن ارحلوا... دقائق خمس بعد ساعات من الانتظار في هويد الليل أمام بوابة السجن، وساعات أخرى في استراحة لا راحة فيها... دقائق خمس تلك التي جاد بها صاحب الملك على عبيده.

ودَّعتْ الأم ابنها في صمت، تتشبث بذراع مظلوم خشية أن تسقط من على كرسيها من هول المشهد الذي هي فيه... ومحمد قابع في مطرحه وهو يجزّ على أسنانه، وعيناه جاحظتان ترسم فيهما الشعيرات الحمراء خرائط معقدة لواقع معقد... انتظر محمد حتى اختفى والداه عن بصره تمامًا، ليحمل يده العاجزة ويسير مكبلاً بالحديد أمام جلاديه.

في الزنزانة اتقدَّت ثورة محمد على الحواجز والسجن والنظام، ضرب برأسه مراتٍ في الجدران، حتى سالت الدماء منها، وتجمع حوله نفرٌ من زملاء المنفى يحاولون تهدئته... تحولت ابتسامته لأهله في الزيارة إلى انفجار ضخم يطال الجميع... بأظافره المدببة حاول قطع شريان يده، يريد الانتحار مثلما

انتحر قبل أيام "شريف" الذي قبع في زنزانة بجواره أكثر من سنتين ثم تناول شريطًا كاملاً من حبوب الضغط كانت قد سُرِبت له في إحدى الزيارات في غفلة من الحراس... تسرسبت الدماء قطرات قبل أن يهمّ أحمد بقطع جزء من قميصه يكتم به الجرح الصغير ويصرخ فيه:

- ليه ؟... اتجننت ؟... هيخلوك تعيش مقهور وتموت منتحر، تموت كافر.!

دفعه محمد في صدره وقد جلس وركن ظهره على الحائط:

- لمَّا أنا أبقى كافر هم يبقوا إيه ؟... أنا عايز أروحله أسأله عاجبه اللي بيحصل فينا ده ولا لأ ؟... ولو مش عاجبه ساكت ليه؟... هو مش العادل بردو ولا إيه ؟!!!

- بس يا محمد، حرام عليك

- الحرام هو اللي إحنا فيه، الحرام اللي هو سايبنا فيه وقاعد يتفرج كأنه عجوز خرفان عاجز عن إنه يعمل حاجة، ولَّا يمكن جاله زهايمر ونسينا في عالمنا القبيح اللي صنعه عشان يتسلى.

- اخرس يا محمد

قالها أحمد، وسرت همهمات في الزنزانة ونظرات صادمة من كلمات محمد المفاجئة ربما، والتي خشوا هم من نطقها مفضلين الاستغفار والدعاء بلا طائل رغم مرور الأيام والأشهر والسنوات.

- ها ها ها ها ها

ضحكات عالية ساخرة تخرج من فاهه:

- يكونش مات!؟ تقريباً كده

وساد صمت وسط الذهول.

(٩)

(في العقرب يحتاج المرضى السجناء أحيانًا لخروج عاجل من محبسهم إلى مستشفى السجن أو غيرها من المستشفيات ، وهو أمرٌ يتطلب رفع طلب من المريض إلى مأمور السجن ، والذي بدوره يرفعه إلى مصلحة السجون ، وعند الموافقة يتم تجهيز ما يسمونه "ترحيلة" ، وهي قوة أمنية لمصاحبة السجين المريض ، لكن دائمًا ما يتم إلغاء هذه الترحيلة لأي سبب ، وعند الإلغاء يقوم المريض بتكرار دورة تقديم الطلب وانتظار الموافقة التي تستلزم على الأقل عشرة أيام.

وحتى إن وصل المريض بترحيلته إلى المستشفى ، فإن هذا ليس النصر الكبير ، بل يُفاجأ بعقبة جديدة تجسِّد حاله المذري ، فمن الطبيعي ألا يجد سريرًا لإجراء الفحص الطبي ، أو أن الأجهزة الطبية معطلة... أمَّا إذا حالفه الحظ وأجرى الكشف وطلب منه طبيب المستشفى فحوصات طبية، فإن قوة الترحيلة تعيد المريض للسجن مرة أخرى ، ليقدِّم طلب لترحيلة جديدة لإجراء هذه الفحوصات... وهكذا دورة المريض في السجن حتى يلاقي ربه.

استغاثات المرضى وطلباتهم لا تتوقف، وإدارة السجن لا تسمع ولا ترى وترفض إدخال الأدوية وتمنع صرفها من عيادة السجن فتجد العقرب ساحة جمعاء للعذاب في نوبات إغماء أو غيبوبة.

التجويع هو عملية قتل بطيء، لأن نقص الطعام والمواد الأساسية التي يحتاجها الجسم البشري من بروتين وفيتامين وكربوهيدرات ونشويات وسكريات يتسبب في إصابة الجسم بالضعف والهُزال، وبالتالي يفقد السجين القدرة على الوقوف، وتصبح مناعته ضعيفة في مواجهة الأمراض، فضلاً عن تأثير ذلك على المرضى بالأساس بمضاعفات خطيرة من الطبيعي أن تُسرِّع من الوفاة.

في العقرب لن تخرج إلا وأنت مصابٌ بأمراض الكبد والكلى والطحال، وارتشاح الرئة، والأزمات الصدرية، وأمراض القلب، وضمور الأطراف، والانفصال الشبكي، والانهيار العصبي، والتهابات الزائدة والغدة النكافية والمعدة، والربو الشعبي... وإن كنت سليمًا معافى فاعلم أنك ستفقد نصف وزنك وتصبح هزيلاً ضعيفًا وربما تفقد إحدى ساقيك؛ ليس بسبب الضرب والتعذيب، لكن نتيجة الأمراض المزمنة التي ستصيبك).

كانت تلك وريقات صغيرة وجدها المحتجزون في الزنزانة عندما تمّ الزج بهم داخلها قبل عدة أشهر، وريقات انسكبت المياه عليها فلطّخ الحبر بياضها حتى أصبحت قراءتها تتطلب تدقيقًا وإمعانًا في النظر، وريقات لعلها شهادة وفاة لطبيب مسجون قبل أن يلقى حتفه... هكذا وقّع عليها ذلك الغائب المجهول عنهم "الدكتور طاهر"، والذي لم ينسَ أن يطبع بصمته عليها بالدماء.

انتهى عُمر من قراءة كتابات الدكتور طاهر حين سمع "دوشة" وتهليل في زنازين العنبر على غير العادة... اقترب من الباب ورفع غطاء فتحة التعيين متسائلاً، فردَّ عليه صوت من بعيد أن اللواء نعيم مأمور السجن السابق يرقد مشلولاً في إحدى المستشفيات.

كان اللواء نعيم مِنْ أسوأ مَنْ مرّوا عليهم، وكان لقبه بين المحتجزين "الشيطان"، كان يصادر الزيارات التي تأتي لهم وما بها من أكل، ويأكل بعضًا منها أمامهم لإذلالهم، وكان يشارك في حفلات تعذيبهم ويضربهم بيديه العاريتين.

منذ أيام وقف القدر رحيمًا بسجين من سجناء بالآلاف حينما منحت إدارة السجن تصريحًا لـ"محمد الأسواني" وتمّ نقله إلى مستشفى القصر العيني لإصابته بجلطة، فقابل هناك اللواء نعيم على سرير المرض مشلولاً.

في تلك اللحظة، وعندما سرى الخبر من تحت أبواب الزنازين مخترقًا الحوائط الصماء ، سرت حالة من البهجة الهستيرية ونسي المعتقلون آلامهم اليومية... لم يفكِّروا إلا في اللواء نعيم وما حلَّ به ، يتذكرون حفلات الضرب والإذلال النفسي التي كان يمارسها ضدهم ويتندرون بحالته الآن ، حتى إن بعضًا منهم ذهب لتجسيد مشهد اللواء المشلول الذي يتبرز في ملابسه ويئن دون توقف.

جلس المعذبون في العقرب داخل زنازينهم وقد شعروا براحة الانتقام ، مدَّوا أرجلهم وارتكنوا إلى ظهور بعضهم البعض يشعلون أعقاب سجائرهم التي أخرجوها من أكمام القمصان وكلٌّ منهم يرسم صورة ذهنية للمأمور الظالم الذي يرقد وحيدًا على سرير في مستشفى لا يقوى على الحركة أو الكلام، وقد هجره أهله وأصحابه.

في زنزانة محمد همَّ إليه أحمد يجذبه من قميصه والضحكة تعلو وجهه:

- شوفت يا محمد، مش قلتلك ربنا كبير وعادل.

محمد لا يحرِّك ساكنًا إلا من نظرة صامتة وضحكة ساخرة ، وهو ينظر إلى عيسوي ويتذكر والديه وأهالي المحتجزين ظُلمًا في السجن ، وعماد الذي وجدوه ميتًا في زنزانته وقد فاحت رائحته ، و"المُسير" الذي يقف وسط عيادة طبيب السجن

ينتقي نفراً قليلاً من المساجين كي يتم عرضهم على الطبيب في مشهد إهانة وإذلال متكرر لا يكفي معه شلل اللواء نعيم أو موته إربًا إربًا حتى.

(١٠)

غادر الأستاذ مظلوم وزوجته أبواب السجن بعد دقائق قليلة كانت كفيلة بإراحة قلبيهما الموجوعين ولو قليلاً... في عربة بيجو استأجرها مظلوم كي تقلهما إلى السجن وتعود بهما للمنزل مرة أخرى... صعد وزوجته التي التزمت صمتًا يحمل بين طياته بكاءَ مكتومًا...

ما هي إلا لحظات حتى سقطت الأم مغشياَ عليها في كنبة السيارة الخلفية... توقفت السيارة على أحد جانبي الطريق، وهرول مظلوم والسائق بزجاجة مياه كانت معهم نحو الأم الغائبة عن الوعي في محاولة لإفاقتها دون جدوى... جلس والد محمد بجوارها بعدما أمر السائق بتغيير خط سيرهم والتوجه نحو مستشفى قصر العيني بسرعة...

في طرقات المستشفى راح مظلوم يسير بتثاقل غريب كأنه تائه لا يعرف مقصده... لم يمر الوقت طويلاً حتى باغته الطبيب وهو يتجنب النظر في عينيه مباشرة:

- البقية في حياتك يا أستاذ مظلوم شد حيلك

مظلوم ينظر للطبيب في ذهول مشوب بالغضب:

- إنت بتقول إيه يا دكتور؟... لا مراتي مماتتش...

دفع باب العناية المركزة وهو يصرخ:

- قومي يا أم محمد... قومي حرام عليكي متسيبينيش... قومي يا حاجة، محمد هيقوم ويرجع لحضنك...

حينها حاصره نفرٌ من الممرضين وأمن المستشفى وأخرجوه بالقوة خارج العناية المركزة.

جالسًا خائر القوى منهكًا يطلب من ربه أن يريحه بدلاً من أن يتركه هكذا بين عذاب فراق زوجته للأبد وفراق ابنه خلف أسوار السجن العاتية... وحيدًا جلس مظلوم يبكي كطفلٍ بريء، تأخذه الجلالة حينًا فيسبّ الجميع ويتمرّد على ربه الذي عبده سنينًا طوال، وما يلبث أن يعود لهدوئه الوقتي فيستغفره ويطلب رحمته.

في تلك الأثناء كان جيران مظلوم وأهالي منطقته قد حضروا للمستشفى فور علمهم من سائق البيجو بما جرى... تجمعوا حوله وهم يحملون تصريحًا من المستشفى بخروج جثة زوجته... كانوا قد جهزوا العدة لنقل جثمانها نحو مقبرة اشتراها مظلوم في باب النصر بالقاهرة القديمة قبل عدة سنوات اعتقادًا منه أنه أول من سيدفن فيها من أسرته الصغيرة.

حمل القوم النعش وهبطوا به من سيارة الموتى على بُعد خطوات من مثواها الأخير، يتمتمون بشهادة أن لا إله إلا الله

وأن محمدًا رسول الله ، يستغفرون ويدعون ويتوسلون الرحمة والمغفرة وحسن الخاتمة ، يلقون التحية على من سبقوهم من المسلمين المؤمنين وغير المؤمنين ، وكلٌّ منهم يفكِّر في اليوم الذي سيُحمل فيه على الأعناق جثةً هامدةً لا حراك فيها نحو مصيرها المجهول.

ساعتان وكان الجمع قد تفرّق... وعاد مظلوم إلى منزله الموحش بعد رحيل أحبائه منه.

في المساء تجهز الصوان وافترش الشارع بفراشة الحاج كيلاني وأولاده ، ورفعت الميكروفونات عاليًا فوق مأذنة المسجد المجاور، وبدأ الشيوخ يتنحنحون ويقرأون القرآن رُبعًا وحزبًا حتى دقت الثانية عشر مساءَ، فانفض الناس الذين أتوا من كل حدب يواسون الموظف العجوز ويستفسرون عن حال ابنه الآن، ويتداولون فيما بينهم حكايات عن ابن فلان الذي أُعتقل قبل أشهر عديدة ولم يُسمع له حسّ حتى اليوم، وعن هؤلاء الذين حكمت المحكمة عليهم بالسجن خمس عشرة سنة، وغيرهم، غير مبالين بالقرآن الذي يُتلى.

في المنزل بات مظلوم ليلته وحيدًا بين الجدران الصماء التي لا تختلف شيئًا عن جدران السجن المحتجز فيه محمد... أدار الراديو على محطة القرآن الكريم ، واحتضن صورة التقطت له مع زوجته وابنه قبل سنوات تعلو فيها الضحكة فتملأ

الأركان... كانت أيامًا هادئة يعيشون فيها في حالهم بعيدًا عن ضجيج السياسة والقتل والوضع المضطرب الذي قادهم للمأساة التي يعيشها وحده حاليًا... دموعه تنهمر فتغطي ملامحهم في الصورة، ويده ترتعش عاجزة عن التمسك بهما والمحاداة عليهما.

قضى مظلوم ليلته يبكي حينًا، ويتألم حينًا، ويفكِّر فيما سيخبر به نجله خلال زيارة السجن المقبلة؛ أيخفي عنه نبأ وفاة أمه حتى لا يزيد عليه متاعب السجن وسلاسله الملتفة حول رقبته، أم يخبره ليزيح عن قلبه جبلاً من الألم يتحمله وحده ولم يعد يطيق؟

نام الرجل وهو يحمل في رأسه أفكارًا متصارعة، كأنها أعداء تريد الفتك ببعضها البعض.

(١١)

أصبح للوقت قيمة نوعًا ما عند محمد، الذي أضحى يحسب الأيام والليالي من أجل رؤية والديه في الزيارة ، رغم أنه يشفق على والدته أن تأتي تلك المسافة وهي في حالتها المرضية تلك وقد رآها لا تقوى على الكلام أو الحركة...

نودي اسمه للزيارة ، هرول مسرعًا ، ليجد والده وقد أتى وحده دون والدته... باغته بسؤال استنكاري:
- أومال أمي فين يا أستاذ مظلوم ؟

طأطأ مظلوم رأسه أمام ابنه؛ لا يعرف ما يقول، لكن صمته كان أبلغ من الكلام...

انتهت دقائق الزيارة المعدودة دون أن ينبت محمد ببنت شفة، حتى كلمات والده لمواساته لم تصل إلى أذنيه... عاد إلى زنزانته كأنه ثورٌ هائجٌ مكبلٌّ بالحبال يريد افتراس سجّانه... امتنع عن الطعام، وتذمر، وضاق بزنزانته ذلك اليوم أكثر من أي يوم مضى... شعر أنه حقًا سجينٌ ذليلٌ ماتت والدته بعدما أصيبت بشلل جراء ما حدث له، ولم يستطع حتى توديعها وتشييعها إلى مثواها الأخير... ماتت بسبب المأمور والصول وضابط الكمين وأمين الشرطة والنظام والظلم... لم يعد

يخشى شيئًا بعد الآن... سبّ السجن وتفوه بصوتِ عالِ بما يهمس به الآخرون...

حاول زملاؤه ردعه عما هو فيه وإعادته لصوابه حتى لا يقع تحت أيديهم، وهم من لا يعرفون الرحمة أو الشفقة... لكن هيهات، طالته يد المأمور وزبانيته... بالقوة الضاربة جردوه من ملابسه حتى أصبح عاريًا تمامًا، ألقوا به في الحبس الانفرادي بعدما نزعوا عنه البطاطين ليجلس وسط الصقيع من دون غطاء أو ملبس... قاومهم وهو يصرخ، فقيدوه وأطلقوا عليه الخرطوش الذي حفر في ظهره معاني الألم والذل.

ظل محمد على حاله في ثورته الحقة ضد من قتلوا والدته وقطعوا يده وجردوه من كرامته وآدميته... لم يثنه الحبس الانفرادي عن المطالبة بحقوقه وحقوق من معه ممن يعانون لدغات العقرب ليل نهار... صمّم "محمد مظلوم" ألا يكون مظلومًا بعد اليوم، وأن يقاوم الظلم والاستبداد الموجود داخل السجن.

جرجروه أمام المعتقلين في الممر الصغير أمام الزنازين، أعادوا ضربه بالهراوات والعصيان... وعندما انتهوا منه ألقوا به مرة أخرى في الحبس الانفرادي.

مرّ عليه أسبوعٌ قبل أن يعيدوه مرة أخرى لزنزانته الجماعية.

رأى "زلومة" ما حدث لهذا الشاب الذي أتى معهم في سيارة الترحيلات ، كان زلومة يكن احترامًا كبيرًا للسجناء السياسيين ولمحمد مظلوم تحديدًا، فعل ما بوسعه عندما كان محمد في الحبس الانفرادي حتى نجح في إدخال بعض أدوية الجروح له وسط الأكل، وقد دفع ثمنًا لا بأس به نظير ذلك...

بعدها بأيام غادر "زلومة" سجن العقرب وتم نقله إلى سجن آخر ، وهناك روى للنزلاء عما رآه في العقرب من أساليب ترهيب وترويع للسجناء خصوصًا السياسيين منهم، فحكى عن العمليات الدورية لإدخال الكلاب على المعتقلين لإخافتهم ، وكذا إطلاق الخرطوش عليهم من مسافة بعيدة كطريقة للتعذيب ، لأن الخرطوش يبقى في جسد المعتقل لمدة يومين أو ثلاثة فلا راحة في النوم ولا الاستيقاظ ، فقط الألم والإرهاق والمرض ولا شيء آخر.

ويحكي زلومة للسجناء الجنائيين:

- قابلت محمد دا وإحنا مترحلين ، وهناك قعدت أيام كتيرة في سجن العقرب ، ولد مثقف وكان عارف اللي هيحصلنا من قبل ما نوصل السجن ، ولد مظلوم بس وكتير زيه مش إخوان ولا الكلام ده ، لا ، دول شباب عادي جم في الرجلين ، الواحد منهم تلاقيه بيبتسم وعنده أمل رغم كل التعذيب اللي بيشوفه.

لم يكن زلومة إلا مسجون جنائي تعدَّى على صاحب الورشة التي يعمل فيها بعدما رفض إعطاءه أجرته ، فزُجَّ به إلى السجن ، ورغم جهله بالقراءة والكتابة وأمور السياسة ، إلا أنه لطالما عرّف نفسه بأن الحياة علمته الكثير حتى أصبح قادرًا على التفرقة بين الخبيث والطيب ، وهذا ما دفعه للتعاطف مع محمد مظلوم ومن معه من الشباب الذي رأى بعينيه ويلات العذاب المحدقة بهم.

(١٢)

في هويد الليل، جلس الرجل الخمسيني القرفصاء في زنزانة متخمة بالمحتجزين، لا يجد راحته قطعًا وقد اختنقت أنفاسه وتعقدت بعضها ببعض عدة مرات... الليل يخنقه كثيراَ، والظلمة وإن عاش فيها طويلاً، لكنه لم يعتدها يومًا... يحلم بالعودة إلى حياته في الخارج يرتدي بذلته المزركشة وطربوشه وبين يديه عود يعزف عليه ألحانًا قديمة لأم كلثوم وعبد الوهاب، فيجني ملاليم قليلة على مقاهي وسط القاهرة، قليلة لكنها كافية كي يعيش مستوراً بالمال، غنياَ بالدندنة...

جلس "عم صابر" لا يبالي بتأوهات وآلام من قدموا عليهم منذ ساعات ونهشتهم الكلاب وعُريت أجسادهم ليجد فيها البرد القارص وليمته... لم يعد يبالي بعد خمسين عامًا عاشها وحيدًا تلتقطه الأيام حتى وجد نفسه فجأة بين العشرات في عربة ترحيلات كئيبة أبت أن يأتي معه عوده، فسقط في غمرة الصرخات والسباب ومحاولات الهروب العشوائية...

خمسون عاما عاش فيها ذلك الرجل فقيراَ لديه أحلام كثيرة وطموح كبير ورغبة شاسعة وعشق للحياة رغم قسوتها، لم يكن عليمًا بأمور السياسة، وعاش ككثيرين غيره يعظّمون

النجمة والنسر ، ويبتسمون لهما ابتسامة صفراء تجنب مصائب الغيب.

انقضت أحلام صابر قبل سنوات من دخوله السجن، ولم يكن ليحزنه في الأمر برمته إلا القدر الذي رفض حتى فتات الرفاهية الذي منحه إياه وأراد اختباره مجدداً بعدما شاب... في نظراته للسماء بعث العجوز المريض رسائل عتاب واستعطاف في آن معًا، وانزوى ينتظر الجواب الذي لا يأتي تقريبًا.

استفاق صابر قليلاً ، وبدأ يدقّق النظر في جروح وآلام المعذبين من حوله... تذكر ليلته الأولى عندما كُسرت ساقه من ضربة هراوة شديدة ، فنقلوه إلى مستشفى السجن مرددين: مهو ميت ميت.

تحول عم صابر إلى صابر الأعرج ، وفي حفلات التعذيب يجيء به ليغني ويدندن ؛ ويرقص أحيانًا ؛ أمام جمع من الضباط والصولات، فتتعالى ضحكاتهم وقهقهتهم من عجوز أعرج أجرب يتمايل والدموع تنهمر من عينيه، منكسراً ذليلاً ضعيفًا فانٍ ، وهو ليس فانٍ ، على حاله حتى يملون منه ويركله أحدهم بقدمه بعيدًا ، فيسحبه آخر حتى يلقيه في زنزانته المظلمة...

فجأة...

نهض عم صابر وقد أمسك بياقة قميص عامر المحبوس معه منذ مدة:

- اقتلني يا عامر

عامر باستغراب ودهشة:

- بتقول إيه يا عم صابر؟!

يقولها بعدما زاد قبضته على قميص عامر والدم يتساقط زخات من أنفه:

- بقولك اقتلني... اقتلني... ريحني يا ابني من العذاب اللي أنا فيه.

ساد صمت مدقع أرجاء الزنزانة، وتحولت الأبصار بدهشة نحو عم صابر... كفَّ المتألمون عن أوجاعهم، وباتوا ينظرون بشفقة إلى رجل في مقام والدهم بحكم السن... لم تكن نظراتهم تحمل شفقة فقط، بل خوفًا ورعبًا من الوصول لمصير الرجل العجوز؛ قلقًا من أن تأتي أحدهم بغتة فيزول الأمل من قلبه ويصبح اليأس إلهًا ينشر ظلامه بداخله.

تساءل عامر بعدما ابتلع ريقه:

- أقتلك إزاي يا عم صابر؟... تتقطع إيدي قبل ما تتمد عليك

- يا ابني أنا عايش ميت وماليش لازمة في الدنيا دي...

اقتلني يمكن ما ألاقيش هناك سجون ولا "عقرب"... اعتبرني زي أبوك يا عامر، ترضى له الذل والمهانة اللي بشوفهم كل يوم؟... الموت أكرملي يا ابني...

- ما أقدرش يا عم صابر، ما أقدرش...

اندفع صوت من ركن في الزنزانة مستغفرًا ومتمتمًا بآيات من القرآن:

- يا أستاذ صابر يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً)، ألا يكفيك أنك عشت جُلَّ عمرك بمزمار الشيطان ووسط الراقصات وأصحاب الهوى.

هبَّ جمعٌ من المحتجزين في وجه عبد العظيم، وهو شابٌ في الثلاثينيات أطلق لحيته ويقبع في سجن العقرب بتهمة الانتماء لجماعة تكفيرية والتورط في عدة اغتيالات طالت شخصيات ومنشآت...

- عيب يا عبد العظيم اللي بتقوله ده... ده مهما كان عم صابر قد والدك.

قالها شريف، شابٌ في العشرينيات يبدو من هيئته أنه لا

ينتمي للإخوان أو الجماعات المتشددة وكثيراَ ما روى أنهم جاءوا به في زمرة من دخلوا العقرب بطريق الخطأ...

ردَّ عبد العظيم بحدة:

- ما العيب في ذلك يا إخوتي؟!... أليس هذا كلام الله، أم أنكم نسيتم الله؟... ألا يكفي هذا العجوز أنه عاش فاسقًا لينهي حياته منتحراَ فيصلى نار الجحيم...!

تحدث عامر وقد احتضن عم صابر:

- الله غفورٌ رحيمٌ يا عبد العظيم، وبعدين عم صابر أكيد قال كده من غُلبه ومن اللي بنشوفه كلنا من تعذيب وذُل ومهانة، بلاش تحكم على حد، ولا تنصّب نفسك والي علينا، كفاية اللي إحنا فيه...

استشاط عبد العظيم غضباَ، وهمَّ بضرب عامر، واندلعت بينهما مشاجرة كبيرة، وتعالت الأصوات حتى تجمع الراقدون في زنازين العنبر يلصقون آذانهم بالجدران ليتبينوا ما يحدث.

سقط عم صابر مغشياَ عليه أثناء المشاجرة، لا يحرِّك ساكنًا، وقد توقفت نبضات قلبه تقريباَ ... يجلس عامر بجواره، يبكي ويهز في رأسه ويضرب على صدره أن ينهض، دون جدوى.

تنفتح أبواب الزنزانة، ليدخل نفرٌ من الحراس يضربون الجميع ضربات طائشة، ويخرجونهم جميعًا مكبلين.

يأمر أحد الضباط بنقل صابر إلى عيادة السجن وعرضه على الطبيب ، ويخرج البقية إلى باحة السجن لاستجوابهم... ساعات من الأسئلة المكررة... قبل أن يأمر بالزج بهم إلى زنازين التأديب.

مات عم صابر بالسكتة القلبية... وقد سرى الخبر بين المعتقلين، ليتذكر "محمد مظلوم" أمه التي ماتت بالطريقة ذاتها قبل مدة بعدما لم تتحمل رؤية ابنها على حاله هذا... مات صابر مثلما مات من قبله : عماد وإسماعيل وياسر وغيرهم... وبات الأحياء ينتظرون دورهم في لعبة الربِّ وجلاديه.

(١٣)

مساءَ ليلةٍ هادئة على غير العادة في العقرب...

أضيئت أنوار الزنازين، وحضر بعض من الحراس إلى عنبر (١) حيث يقبع محمد مظلوم وآخرون... فُتحت الزنزانة على مصراعيها، ونادى الحارس برفقٍ على محمد، الذي فزع خوفًا من أن يكون استدعاؤه ضمن المجموعة المستدعاة لتعذيبهم أو تلفيق تهم لهم ؛ كما سمع من قصصٍ وروايات ، وكما عايش من آخرين سبقوه...

في طابورٍ طويل وحولهم الحُرّاس بالعصيان والأسلحة، ساروا يتقدمهم محمد، حتى وصلوا عند عيادة الطبيب، أجلسهم "المُسير" في الاستراحة بعدما خلعوا ثيابهم كاملة إلا من السروال الداخلي، ينظرون إلى بعضهم بخوفٍ وقلقٍ تارة، وشفقة تارةً أخرى عندما يرى كلٌ منهم آثار التعذيب على جسد الآخرين.

دقائق معدودة حتى نادى المُيسر:

- محمد مظلوم...

نهض محمد تاركًا خلفه حذاءه البالي وبدلة السجن:

- نعم

دخل محمد إلى العيادة، قابله الطبيب الذي بتر يده في أول ليلة له بابتسامة عريضة غير مألوفة وقد جهز له مُطهر وأدوية ومراهم عدة، أول مرة تقع عيناه عليها... رقد محمد على السرير وقد أزال عنه الطبيب كل آثار التعذيب والجروح التي امتلأ بها جسده...

لأكثر من ساعة لم يفهم محمد ما يجري، ولِمَ كل هذا... وصعدت إلى رأسه تساؤلات سرعان ما طردها، فقطعًا لن يفرجوا عنه الآن، ولكن لِمَ لا؟ ربما أدركوا الحقيقة وأنه حقًا مظلوم ولا دخل له بكل هذا، وأن القميص الذي كان سبباَ في القبض عليه لا يستحق كل ما حدث.

انتهى الطبيب تقريباَ، بعدما أعاد المعتقل إلى حالته الأولى... لا أثر للتعذيب، والجروح جميعها غُطّت بمهارة، حتى إنه حقن بسرنجة مورفين أزالت عنه الألم تمامًا.

- اللي بعده...

صاح الطبيب، ففهم الحارس، ودفع محمد خارجًا برفق، قبل أن يهم أحد المنتظرين بالدخول ليأخذ دوره.

هكذا حتى الساعة الثانية فجراَ، عندما انتهى الطبيب منهم جميعًا، وأعادهم الحُرّاس إلى زنازينهم.

كان من معه نيام، والأنوار قد أطفئت. جلس ليلته مستيقظًا

لم يغفل له جفن، وظلَّ يفكر فيما حدث، دون الوصول لإجابة.

في الصباح الباكر استيقظ عويس وأحمد، نظرا إليه، فخرجت منهما ضحكات عالية وساخرة لم يفهمها، مثلما عجز عن فهم ما حدث ليلة البارحة...

باستنكار قال:

- إيه في إيه، مالكم؟

وهما يواصلان الضحك:

- هم ظبطوك امبارح؟... شعر ودقن وفوطة سخنة ها ها ها

- مش فاهم تقصد إيه منك ليه؟!

أجابه أحمد وقد تمالك نفسه من الضحك:

- أقصد يعني رحت العيادة إمبارح وعاملوك معاملة كويسة وعالجولك الجروح، صح؟

- أه هو ده اللي حصل، ومش فاهم السبب لحد دلوقتي

- مممم... الساعة كام؟

- وهعرف الساعة كام منين يعني...

- خلاص خلاص يا محمد... حالاً هتعرف الإجابة على كل اللي مش فاهمه.

كانت الشمس قد أشرقت قليلاً ، عندما انفتحت الزنزانة ، ونادى المنادي على محمد أن لديه عرض على النيابة العامة... حينها أدرك محمد ما حدث البارحة !.

خرج من زنزانته منكبّا تائهًا ، بعدما علم أن كل ذلك كان لأجل العرض على النيابة ، وحتى لا تنفضح صورتهم السيئة في وسائل الإعلام والجمعيات الحقوقية التي تهتم بتلك القضايا ، وحتى لا يتعرض ضباط السجن وحراسه للعقوبة... لم يفطن طالب السياسة لكل ذلك، إلا متأخراً...

عاد للوقوف مرة أخرى في طابور تجمع فيه من جميع الزنازين مَنْ تلقوا الكشف الطبي أمس وأزيلت عنهم أدلة إدانة السجّان... ساروا تلك المرة مكبلين بالأغلال في أيديهم ، وقد صعد لأول مرة منذ الزج به إلى السجن لعربة الترحيلات ذاتها.

غادر محمد العقرب لأول مرة ، تاركًا خلفه مَنْ لم يسعفهم الحظ في العرض على القضاء سريعًا، لا ينامون الليل منتظرين قطع ستار الظلام بهراوات الأمن وسباب الحراس الغشم.

••••

أمام النيابة العامة بمحكمة مصر الجديدة، وقف المتهمون الذين لم ينبسوا ببنت شفة إلا أنهم أبرياء من التهم الموجهة إليهم، والتي من بينها التخطيط لقب نظام الحكم وإثارة الفوضى والإرهاب...

حاول محمد الدفاع عن نفسه وعن واقعته المختلفة رافعًا يده المبتورة ليرد عليه وكيل النيابة:

- عايز إيه ؟... مش إيدك دي اتقطعت وإنت بتهرب من السجن؟
- لا يا أفندم أبدًا... أنا إيدي اتقطعت في السجن، بدل ما يعالجوني من الرصاصة اللي فيها؛ الدكتور فضَّل يقطعها.
- الورق اللي قدامي واللي إنت ماضي عليه بيقول غير كده...
- ده أكيد ورق مزور... أنا مامضيتش على حاجة.
- تقصد إنه تمَّ الاعتداء عليك داخل السجن يعني؟
- أكتر من مرة حضرتك... مش أنا لوحدي، تقريبًا كل المعتقلين في العقرب، وزملائي يشهدوا...

صاح بقية المتهمين بتأكيد كلام محمد مظلوم وأكدوا لوكيل النيابة تعرضهم للاعتداء بالقول والضرب من قبل الضباط والحراس، وأنهم قبل العرض على النيابة بيوم واحد تم إزالة آثار التعذيب عنهم وعلاجهم بشكل جيد لإخفاء الجريمة...

صمت وكيل النيابة قليلاً، وعندها استطرد نجل مظلوم في

حديثه وطلب الكشف عليهم في مستشفى مدني لإثبات تعرضهم للتعذيب ، لكن ممثل النيابة رفض طلبه وأخبره أنهم لا يمكنهم تقديم شكوى إلا بعد الخروج من السجن وانتهاء التحقيقات معهم.

قررت النيابة تجديد حبس المتهمين خمسة عشر يومًا ، وتحديد جلسة السابع عشر من فبراير لنظر قضيتهم أمام محكمة جنايات القاهرة...

إلى هنا انتهت مغامرة العرض على النيابة... لم يحدث أيّ مما تمناه محمد وَمَنْ معه... تيقن أن السجن والتعذيب مصيرهم الوحيد ، وأن أي محاولة للدفاع عن النفس أمام القاضي لن تأتي بجديد...

صمتٌ وسكونٌ في طريق العودة للعقرب داخل عربة الترحيلات، وتفكير عميق يشوبه قلق من العقاب الذي ينتظرهم نظير ما تفوهوا به أمام النيابة من تعرضهم للتعذيب والضرب

(١٤)

فور دخولهم من بوابة السجن، كانت الأوامر قد صدرت من المأمور الجديد والذي لم يمر على تعيينه سوى أيام قليلة... توجهت بهم العربة إلى باحة السجن كيوم ترحيلهم أول مرة، وهناك نزل المحتجزون ، بعضهم يرتجف خوفًا ، وآخرون يعضون أصابع الندم على تفوههم أمام النيابة بتعرضهم للتعذيب والضرب، يفكرون في ويلات العذاب التى تنتظرهم من اليد الطولى للحُراس.

قضى محمد معظم الوقت يفكِّر في المصير المنتظر ، لكنه يخفي قلقه بتذكير من حوله بأن المأمور الجديد أقل حدة وعنف من الذي سبقه... ففي أول لقاء لهم به أتى اللواء "البحاح" فخفّف التعذيب قليلاً وقال لهم:

- أنا مستغرب إنتوا عايشين لغاية دلوقتى إزاي؟!" ، السجن ده مصمم إن اللي يقعد فيه فترة طويلة يا إما يموت يا إما يتجنن.

تلك كلماته لهم والتى منحت بعضهم أملاً في الخلاص ، وإن كان لهذا الحديث معنى فعلي؛ فسيظهر في لحظتهم المرتقبة تلك...

- خذوهم على زنازين التأديب...
فاجأهم المأمور بذلك وهو يمسك خرزانته...

كان وقع كلماته قاتلاً ، ربما أكثر من التأديب نفسه... تحطمت آمال محمد، وظهر له "البحاح" على حقيقته التي جاهد حق جهاده في تجاهلها أو إنكارها، وكأنه ينكر حقيقة كونية بأن الشمس تشرق من المشرق مثلاً.

في زنازين التأديب تولى الحراس تقسيمهم مجموعتين في زنزانتين متجاورتين تفوح منهما الروائح الكريهة وروائح الموت تسبقها... كانت الزنازين ضيقة قليلاً عن الزنزانة العادية، ومظلمة لا يدخلها نور أو هواء إلا من فتحة صغيرة.

وقف محمد والبقية يحتمون ببعضهم ، وقد تناوب البحاح ورجاله على تدوير الضرب فيهم ، تارة تصيب الهراوة رأسًا فينفجر منها بئرِ دماء يغطي الوجه والجسد ، وتارة يصيب الكرباج ظهرًا عاريًا فيطبع عليه خطًا لا تمحوه السنوات:

- بقى بتشتكوا للنيابة من التعذيب ؟... طب أنا هاوريكم التعذيب على أصوله يا ولاد الكلب، وخلي النيابة تنفعكم، وشرفي ما إنتو شايفين النور تاني يا شراميط..

وصلة من الضرب المبرح والسباب، لم ينهها إلا شعور المأمور بالتعب والإرهاق.

غُلِّقت الزنازين بالأصفاد بعدما غمرت المياه الباردة أرضيتها، مياه كالثلج في شتاء قارص وقاسي، لا راحة فيها ولا مقعد، بردٌ يفتك بأجساد المعتقلين النحيلة من سوء الطعام وقلته، وآلام تنخر لحمهم فتمنعهم حتى من الوقوف في صمت، يئنون وهم شبه غائبين عن الوعي... بعضهم يبكي من العذاب، وبعضهم يبكي مستقبله بين حوائط الاستبوستيس المسرطنة حتى الموت.

ساعات في غسق الليل يموتون فيها ألف مرة، وكأنهم ارتكبوا جُرمًا أكبر من جُرم إبليس الذي عوقب بالعيش هنيئًا في الأرض لآلاف لا تحصى من السنين...

أوجاعهم وهمهماتهم تبعها صمتٌ غريب كأنه الاستسلام لراحة أبدية قادمة، صمتٌ كسره سامر بمشهد سينمائي من فيلم قديم استعاد به روحه على خشبة مسرح الجامعة قبل اعتقاله...

- الحمد لله، أخيراَ لقيت مسئول زي حضرتك أعرف أتكلم معاه.

صفعة قوية...

- ماتتكلمش إلا لما خالد بيه يسألك

التفات يتبعه صفعة أقوى

- ماتتلفتش

- اسمك وسنك بالكامل؟

- إسماعيل محمود الشيخ، ٢٥ سنة

- مهنتك وعنوانك؟

- طالب بنهائي طب القاهرة، ١١ حارة دعبس بالحسينية

خالد بيه يولع السيجار وينفخ ويقول:

- انضميت للإخوان المسلمين إمتى؟

- إخوان؟!! أنا عمري ما كنت من الإخوان

- أومال مربي دقنك ليه؟

- طولت ولا مؤاخذة هنا

خالد بيه يضحك:

- على العموم ارتحت من حلاقتها، تصور بقالي ٢٠ سنة يوماتي أحلقها لحد أما هلكت.

- المشهد انتهى، لا ما انتهاش... الصفعة جاية تصحي النايم والتعبان والهلكان...

قالها سامر مستعيدًا أداءه التمثيلي أمام المتألمين في الزنزانة... وبصوت جهوري:

- أنا مؤمن بالثورة، لمَّا قامت كان عندي ٥ سنين... أنا بأعتبر نفسي ابن الثورة، ولا يمكن أفكر في نشاط معارض ضدها...

- أومال نشاطك مع الإخوان كان إيه بالظبط؟

- يا أفندم أنا حتى للأسف ما بأصليش.

- إحنا مايهمناش بتصلي ولا مابتصليش، إحنا يهمنا أفكاركم المسمومة اللي بتقولوها لزمايلكم في الكلية والجامعة...

- أيها السادة خالد بيه يعود من جديد... أنا مؤمنة بالثورة... دي حجة ٩٩% من أعداء الثورة الإخوان والوفديين والشيوعيين... ها ها ها ها...

انتهى سامر من مشهد "الكرنك"، بعدما أيقظ حقائق عمرها عشرات السنين... انتهى وقد سقط مغشياً عليه ، فارتطم وجهه بمياه الزنزانة الجارية على الأرض الصلبة الصماء...

- خالد صفوان ما ماتش... صلاح نصر ما ماتش...

تلك أخر كلماته ، وسط عويل وصراخ المحبوسين في زنزانة التأديب...

- لم يكن سامر أول من يلقى حتفه داخل العقرب ، ولن يكون الأخير...

نطقها محمد مظلوم في سريرته بعدما ابتلع ريقه بصعوبة ، وهو يفكر حينما يأتي موعده للرحيل الأبدي.

(١٥)

في صبيحة أحد الأيام، نهض مظلوم ليجد نفسه مُلقىً على أرضية غرفة المعيشة، يحتضن صورته مع زوجته وابنه وقد تشقق زجاجها نتيجة ارتطام البرواز بحافة كرسي دون أن يدري من شدة العناء والحزن... نهض الرجل يحاول هندمة ملابسه الرثة وهيئته المزرية ، فالعينان جاحظتان ترسم داخلهما الشعيرات الدموية خطوطًا طويلة وممتدة لا ينهيها إلا حواف حدقة العين، واللحية طويلة وغير مهذبة لانشغاله عن حلقها طوال الأيام التي مضت وهو منشغل بحال ابنه تارةً وزوجته تارة أخرى.

محاولاً استجماع قواه ؛ نظر في ساعته ، ليجدها السابعة صباحًا، حيث يتبقى ساعة واحدة على موعد التظاهرة التي ينظمها الأطباء احتجاجًا على ممارسات بعض رجال الشرطة ضدهم ، وهي التظاهرة التي يشاركهم فيها أهالي بعض الشباب المعتقل داخل السجون... لم يعد مظلوم خائفًا أو حريصًا مثلما كان عندما جاءته علياء تحثه على النزول والمشاركة في مظاهرة للمطالبة بحقوقه وحقوق ابنه ، آثر السلامة وقتها أملاً في انتهاء أزمتهم على خير.

قبل عدة أيام برزت على ساحة الأحداث ظاهرة مروعة قابلها المجتمع باستهجان كبير، حينما همّ بعض أمناء الشرطة التابعين لقسم المطرية بالتعدي على أطباء المستشفى المركزي بدائرة القسم واقتحام المستشفى بالأسلحة النارية... اعتداء أيقظ نار الأحقاد المكتومة داخل قلوب الكثيرين ، وبدت ردود الفعل على تلك الواقعة تنذر بغضب غير مسبوق منذ أمد ليس بالبعيد... الكل يتحدث في الشوارع والمواصلات العامة، ويهمهم بصوت منخفض أحيانًا، ومرتفع دون خوف أحيانًا أخرى... المسألة في نظر المثقفين ودعاة الحرية وحقوق الإنسان في البلاد تتعدى مجرد حادثة فردية، إنما هي سلوك ممنهج شأنه شأن التعذيب الذي يلاقيه السجناء السياسيون خلف أسوار العقرب ومجمع طرة.

لم تكن حادثة الأطباء الأخيرة إلا قشة قسمت ظهر البعير الذي حمل على كاهله جرائم عدة ، فقاوم قتل المحامي الشاب على أيدي حُرّاس جبابرة فقدوا إنسانيتهم قبل إيمانهم الصوري الهش... وتحمل طعنات دعوات واستغاثات ذلك المسكين في إحدى مدن القنال الذي مات دون أن يقترف ذنبًا في حق من قتلوه، شأنه كشأن هؤلاء في عقود الكاو بوي في أمريكا المظلمة ، عندما كانوا يلقون حتفهم فقط لأن غيرهم أرادوا أن يتسلوا، أو لأن حاملي البنادق راهنوا رهانًا

فخسروه ، فصبوا جام غضبهم على الضعفاء مكتوفي الأيدي الذين قابلوهم صدفة في الطرقات...

مظلوم لم يفطن لحمم البركان الخامد منذ فترة، وصدّق مثل غيره ممن سلموا رؤوسهم لحفنة من المتآمرين يعبثون فيها ويحشونها بما يريدونه هم. كانت الألغام منتشرة في الأنحاء، لكن لا إراديًا كانت خطوات مظلوم وزوجته تحدو بعيدًا عنها، حتى بدأت تتكشف رويدًا رويدًا مع كل جريمة تُرتكب ويكون لها رجع صدى غزير.

وصل مظلوم عند دار الحكمة، ليجد جحافل من المتجمهرين بعضهم بالروب الأبيض الناصع، وأكثرهم من هؤلاء البؤساء أصحاب المظالم ممن تشبثوا بدعوة عابرة لعلها تكون المنقذ من نيران الأسياد في زمن عادوا فيه عبيدًا، حتى وإن كانت أصنام اللات والعزة قد ذهبت بلا رجعة ، وبدلت الأيام لونهم الأسود العتيق وأغدقت عليهم بإشراقة ظاهرية مثلها مثل هيئتهم المصنوعة بحرفية شديدة.

مظلوم يقف وهو يهتف بخجل ، وهناك في العقرب يقف المأمور في باحة السجن بكرباج بين يديه، ومسدس جاهز كي يزهق الأرواح معلقًا في جنبه...

الحُرّاس يندفعون بكلابهم المسعورة التي نهشت زلومة ورفاقه في اللحظة الأولى لدخولهم ومحمد عالم العقرب

المرعب والمهين... أبواب الزنازين تفتح... الحراس ينتقون الأطباء المعتقلين ومن على شاكلتهم من شباب وأطفال دون الثامنة عشر ممن يتظاهر آباؤهم في الخارج ويكيدون كيدًا لمن قهروا أبناءهم...

كان محمد من بين هؤلاء الذين وقع الاختيار عليهم ليجروا في طرقات العنابر وهم يصرخون ، فتختلط صرخاتهم وصياحهم بنباح الكلاب التي تعدو وراءهم دون شفقة أو رحمة ، وكأن تلك الكلاب تطبعت بطابع أربابها ، فصارت لا تعرف شيئًا عن خصلة الوفاء التي لطالما تغنى بها البشر عنها...

بعضهم نهشته الكلاب في ذراعه وظهره ، وآخرون كان وضعهم أحسن حالاً فوصلوا تحت أقدام المأمور بأنفاس تتسابق في سبيل الخوف لأجل النجاة في دائرة مفرغة لا نجاة منها ، مطأطئي الرأس تحجب قطرات العرق رؤيتهم ، كما تزيد أشعة الشمس المشرقة على غير العادة في موسم شتاء غائم من الغشاوة التي تعميهم وكأنهم في رفاهية لا يحتاجون فيها لنعمة البصر...

هراوات الحُرّاس تأبى التوقف ، وتتلذذ بكل تأوه يخرج ، في صفوف متوازية وقف مَنْ اختارهم القدر ليلقوا عذابا اعتاده بعضهم...

- بقى الدكاترة زمايلكم وأهاليكم عاملين دوشة برة ، وفاكرين إننا بنخاف؟!

قالها المأمور وهو يوزع ضربات سوطه بلا رحمة أو شفقة...

وعند دار الحكمة يرفع مظلوم قميصًا كقميص ابنه الذي تسبب في الزج به داخل السجن ، منحته إياه علياء وهي تعلو بابتسامة الحرية التي انتصرت قبل سنوات قليلة على طوارئ الفزع والترهيب...

بالقمصان البيضاء الناصعة وقف الأطباء في وجه جحافل من أفراد الأمن المركزي المتأهبين بهرواتهم وقنابلهم المسيلة للدموع ، حناجرهم تشدو بمطالب بسيطة تعكس قناعتهم في العيش بسلام وأمان وكرامة...

في لاظوغلي ، الوزارة على صفيح ساخن ، والشك بدأ يتسرب لقلوب بعض الضباط الذين ذاقوا مرارة الثورة من عند دار الحكمة أيضًا...

- حرام عليكم يا بيه كفاااااااية ظلم...

لم يكمل عامر جملته ، إلا وانفجر المأمور غيظًا بعدما مسّت الكلمات النابعة من صدرٍ محروقٍ بنيران الكراهية ؛ كرامته وشرفه... شرع زبانيته في التناوب على ضرب عامر حتى الموت ، والضعفاء مكتوفو الأيدي ، هزلى ، يبكون من عجزهم

عن إنقاذ زميل عاشروه ويعلمون طيبته وإنسانيته وحبه لوطنه.

انحنت رؤس السجناء خوفا على حيواتهم التي لن تقلَّ بؤسًا عما ينتظرهم بعد الموت ممن تخلى عنهم في الدنيا الفانية... صوت لا يكسره إلا سباب المأمور وإهاناته التى لا تتوقف... صوت واحد في السجن وصوت واحد خارجه، وأي صوت آخر محكوم عليه بالإعدام لأنه خائن أيًّا كانت كلماته التى رفع صوته بها... غرورهم وكِبرهم وشعورهم بالتفوق على غيرهم ممن لا ينتمي لتلك الفئة المزينة بالدبابير والنجوم جعلهم صمّا بكما، إلا لأنفسهم...

الأعداد تتزايد ، والعرق يتصبب على الوجوه في يومٍ غير معلوم مع مَنْ تسري الشمس وتوجه أشعتها اللامعة والحارقة في آنٍ معًا... مظلوم والمئات يسيرون نحو ميدان جمع قبل سنوات آلاف النبلاء الذين سالت دماؤهم على أرضيته في سبيل حرية لا تزال حبيسة أطماع الجنرالات...

"يسقط الظلم"... "يسقط الظلم"... "يسقط الظلم"...

هتاف تعالى وانتشر حتى رجت له الأركان... لم يمنعه إلا أوامر صدرت من لواء على مقربة وقف بحاجب مرفوع ووجه كئيب لا يحمل إلا اللعنات للمحيطين والرغبة

الجامحة في إخراسهم ولو بإراقة دمائهم جميعًا... بإشارة لمساعديه انهالت ضربات العسكر المجبورين على الأطباء والكبار والصغار لا تفرِّق بين أحدٍ منهم، تتوالى في انتظار صرخة استغاثة؛ أننا سمعنا وأطعنا ولن نفعل هذا مجددًا.

محمد لم يتمالك أعصابه وهو يرى دماء عامر تجري في الأرض فتروي ظمأها... هجم على المأمور هجمة واحدة غلب فيها ضعفه وهزاله... بيدٍ واحدةٍ أطبق على رقبته بعدما أسقطه أرضًا من شدة الدفعة التي تلقاها... الحُرّاس يحاولون إبعاده دون طائل... تحول محمد في تلك اللحظة إلى عزرائيل الذي لا تفيد معه مقاومة من جاء أجله، حتى وإن تمتع بالصحة والعافية... يهشِّم رأس المأمور بحجرٍ التقطه وهو ينظر لجثة عامر...

القويّ المتجبرُ خرّ صريعًا تسيل الدماء من رأسه فتغطي وجهه تمامًا، ومحمد على حاله لا ينفك عنه أبدًا، يريد أن يطمئن أنه ذهب بلا رجعة، وأنه أراح العالم وأولئك المقهورين الأذلاء، أو أن رغبة الانتقام والتشفي قد غلبته.

قميصه يسقط عن ذراعه الذي تلقى ضربة غاشمة هشّمت معصمه، وساقاه لا تحملانه من شدة ضربة أخرى أصابت رأسه فأخلت بتوازنه... سقط الأستاذ مظلوم بين الأقدام التي

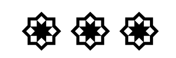
داسته متعمدة من خصمه، أو تلك التي عبرت عليه غصبًا في طريق فرارها...

مات مظلوم وحيدًا بائسًا مقهورًا في الشارع، لا في فراشه... مات دون أن يرى ابنه للمرة الأخيرة قبل وفاته... مات وهو يمنّي النفس أن تكون دماؤه ثمنًا لإنقاذ ابنه من مغبة السجن وقتل الحرية.

وفي باحة العقرب، لم يجد الحُرّاس بُدًّا من رمي محمد بالرصاص، حتى وإن أصابت نيران بنادقهم المأمور المنتهي بالأساس... عشرات الرصاصات اخترقت جسده النحيف لأن دماء أبيه لم تكن الثمن الكافي لإنقاذه.

في خضم المشهد التراجيدي الذي يرونه واقعًا أمام نواظرهم، ثار الضعفاء ثورة رجل واحد على الحُرّاس الغشم... طاقة غضب وكراهية داخل كل منهم قادرة على هدم جدران السجن جميعها... نحو الحراس هرعوا وهم يصرخون من وجع الليالي المظلمة والحانقة التي عاشوها... يضربون الحراس بشدة وهم يبكون والدموع تنهمر من أعينهم كالفيضان الذي لا يفيد معه بناء ألف سد... هشموا رؤوسهم وجردوهم من ملابسهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم... بأظافرهم المدببة من ليالي العيش في الزنازين قطعوا وجوه

الحُرّاس القتلى وصدورهم وبطونهم... أطباء ومهندسون وأصحاب مؤهلات عُليا حولتهم مقابر العقرب إلى بدائيين لا يحملون في قلوبهم إلا الحقد والكراهية للوطن... أضحوا كُفَّارا بالسلطة ومن يمثلها... في عداد الأموات؛ يعلمون أن ذاك مصيرهم... ومن بعيد يلمحون بقية الحُرّاس المتأهبين بأسلحتهم الفتاكة كي يجهزوا عليهم... يبتسمون وهم يستقبلون نسمات الموت تهفهف، تماماً كتلك الابتسامة التي ارتسمت ولا تزال على وجه "محمد مظلوم" وهو ملقى على أرض العقرب السام.



المؤلف في سطور

- قاص وصحفي من مواليد محافظة أسيوط بصعيد مصر
- تخرج من كلية الإعلام قسم الصحافة. جامعة القاهرة، ٢٠١٣
- مؤسس الموقع الإخباري "مباشر ٢٤"
- رئيس تحرير راديو حريتنا ، عام ٢٠١٢
- مدير تحرير وكالة الأنباء المحلية ، عام ٢٠١٤
- عمل بعدد من الصحف والمراكز الحقوقية أهمها: الجريدة الكويتية العرب القطرية ، التحرير المصرية ، جريدة الأهم ، شبكة الإعلام العربية ، جورنال مصر ، مركز أندلس لدراسات التسامح ، ومركز صحفيون متحدون.
- الإصدارات :

- رجل العباءة : وقصص قصيرة أخرى

شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٤م

- الإفطار الأخير : رواية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٥

- سجن العقرب : رواية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٦

- البريد الإلكتروني: Hesham.awad33@yahoo.com



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net